يوم أخضر

مجموعة قصصية



صالح البياتي

المجموعة القصصية الأولى

يوم أخضر

صالح البياتي

قصص قصيرة

شكر وتقدير

أشكرُ الأستاذ فهمي وفريق فولابوك، بكل ما تحملُ كلمة الشكر من محبة وتقدير، لقيتُ منهم كل اهتمام واستجابة وفي كل وقت، بعلاقة تسودها المحبة والاحترام المتبادل.

سعيدٌ جداً، وأوصي الأصدقاء بنشر كتبهم على منصة فولابوك، أفضل من وضعها على الرف فيعلوها الغبار وتفقد قيمتها الحقيقية، وبذلك يتيحون الفرصة لقراءتها إلكترونياً.

نحن الآن في عالم منفتح، هناك المكتبات العامة التي يؤمها القارئ، وهنا الكتب تعرض وتنشر على المنصات الإلكترونية، والاختيار متاح بحرية للجميع، وهي تقدم أيضاً خدمات كبيرة بنشر الكتب النافدة، والتي لم يُعد طبعها.

تقديم

في هذه المجموعة القصصية عشر قصص قصيرة، تتفاوت في حجمها، واثنتان تحت تعريف الرواية القصيرة جداً.

رأي فرانك أوكونور، الناقد وكاتب القصة القصيرة الأيرلندي، في كتابه «الصوت المنفرد»، في مجال تحديده لواحدة من أهم خصائص القصة القصيرة، فيقول:

ليست القصة القصيرة قصيرة لأنها صغيرة الحجم، وإنما هي كذلك لأنها عولجت علاجاً خاصاً، وهو أنها تناولت موضوعها على أساس رأسي لا أفقي، وفجرت «طاقات الموقف الواحد» بالتركيز على نقاط التحول فيه، فالذي يقف على «منحى الطريق» يتاح له أن يرى الطريق كله، والذي يفجر نقاط التحول في الموقف يتاح له أن يجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة ماثلة للعيان.

المحتويات

يوم أخضر	5
رجل الله	11
المرأة الحمامة	16
السيدة سين وقطتها يستردای	19
الحلية الذهبية	28
الحمقى	33
المحاكمة	35
ليل وصهيل	38
شمس وشظايا	46
حلم جندي	51

يوم أخضر

كانت المرأة العجوز حينما يهت إيمانها، وتستلم لليأس، يذكرها زوجها بهذه العبارة: الله قادر على تغيير المستحيلات الى ممكنات، وهو قادر أيضا ان يفعل العكس..

كانت حواسها النائمة، تستيقظ مع ضوء الشمس، فيملأً الشعاع الدافئ؛ روحها بطاقة دافقة وخفية، تبعث الحياة في كيانها الهرم، ترى الشُعَاع متوهجاً كالحريق، مبتدئاً من رأس النخلة، يبهرعينيها الكليلتين، ويخترق الحدقتين، فتحجبه بكفيها الموشومتين حتى الرسغين، بالوشم الأزرق، المائل للسواد مع تقدم العمر.

يرسم الشُعَاع بريشته الضوئية؛ لوحة رائعة على خلفية خضراء داكنة، ولونا احمرا ناريا، تشتعل النخلة في إطارها الداخلي.

كانت الدقائق الصباحية الخاطفة، التي تنتظرها، بعد اداء صلاتها، في باحة البيت، حيث تنتصب النخلة، تظلل المكان عند الظهيرة.

تنتظر الصباح، تقف امام النخلة، بنفس لهفة اداء الصلاة، تحول حبها للنخلة الى عبادة، جرفت كيانها الضعيف، في تيار صاخب من الإثارة والجنون، ترى فيه نفسها مقذوفة بقوة ريح، تلفها حول جذع النخلة، صعودا الى قمتها، المشتعلة بلظى شمس الجنوب، ذات الترفع والكبرياء العارم.

كانت الدقائق القليلة التي تقضيها امام النخلة كل صباح، تملأُ روحها عشقاً وجنونا.. فبعد ان يئست من الإنجاب، صارت النخلة ابنتها الوحيدة.

إبتدأت علاقتهما الحميمة، ذات يوم ربيعي، لن تنساه أبداً، لأنها عَلَّمت عليه في ذاكرتها؛ بلون وعدد سعفات الفسيلة الغضة الأوراق، فصار يوماً اخضراً مميزاً، في حياة العقم واليباس واليأس، التي عاشتها طوال حياتها الزوجية.

رأت زوجها ذلك اليوم، يحتضن بين ذراعيه القويتين، شيئا ملفوفاً بقطعة ندية من الخيش، تخيلته أول وهلة، يحمل طفلا، يحميه من الشمس، والريح الشديدة الهبوب..

اقتربت منه، سألته، وهي تقف فوق كتفيه العريضتين المنحنيتين، وهو يضع الشيء الذي يحمله بين يديه، بعناية على الارض.

- ما هذا الشيء الذي تخفيه؟

أجاب وهو يزيح طرفي قطعة الخيش، ويخرج الفسيلة بعناية كبيرة أمام عينيها المندهشتين:

- هذه إبنتنا البتيلة، نجت من مجزرة فظيعة، طالت آلاف النخيل. أنظري اليها، ما أروعها.. جميلة وفتية.

فرأت المرأة العجوز الفسيلة الصغيرة، ولمست قلبها الطري، من وراء النسيج الليفي، فعشقتها بجنون.

في تلك اللحظة، شعرت حقيقة، أن البتيلة هي إبنتهما البديلة، عن طفل كانا يحلمان به، ولم يتحقق هذا الحلم أبدا في حياة زوجها.

في تلك الليلة.. بعد عودته من دفن إبن أخيه، القتيل في الحرب، عاد حزينا منهكا، يرتعد، ويتقلب في فراشه من شدة الحمى، ويكرر عبارة واحدة:

"أرحام تدفع وأرض تبلع "

لم تفهم المرأة العجوز شيئا، اعتقدت أنه كان يهذي من الحمى، وهول الصدمة والحزن، ولكنها إستوعبت كلامه، وفهمت معناه، عندما بدأت جثامين الأبناء القتلى في الحرب، تزداد كل يوم، وتصل من جبهات القتال المحتدمة، دون إنقطاع، لتقوم المقابر المنتشرة في ارجاء الوطن، بابتلاعها فورا...

عندها تمنت أن يهبها الله ابنة بدلاً من الابن، وتمنت للحوامل المنتظرات مولودا ذكراً، أن يبدله الله بأنثى.

لقد شهدت في حياتها، تفشي الموت بالأطفال الرضع، رأت المهود الصغيرة التي ينامون فيها، خالية في الصيف، يموتون بسبب الإسهال الشديد، اكثر الأمراض فتكاً بالأطفال آنذاك، رغم التعاويذ والشرائط الخضر، المعلقة على الأقمطة، او المنذورة لأشواك البساتين، فصيف الجنوب قاس لا يرحم، يأخذ حصته كل سنة، ويبعثها الى قبور صغيرة، رأت ذلك يحدث امام عينيها كل صيف، ورأت الحرب بعد ذلك بزمن طويل، تفتك بلا رحمة، تقتحم بضراوة كل الحواجز، تقتلع الأبواب الموصدة، وتزرع الموت في كل الفصول.

في تلك الليلة همست في أذن زوجها الملتهبة بجمرة الحمى:

- سأرعى البتيلة لذكرى إبن أخيك حتى تكبر، ويرتفع رأسها الأخضر عاليا فوق جدران البيت، ستكون إبنتنا المحبوبة وسيأتي يوماً، تطعمنا، ونطعم الجيران من ثمرها، ثواباً على روحه.

أبتسم لها، وكف عن تكرار العبارة الوحيدة، التي رددها طوال تلك الليلة، التي أعقبت دفن إبن أخيه.

سألته عن معنى إسميها، فقال:

- هي المستقلة، المستغنية عن أمها، لا تلتصق بها، ولا تبتعد عنها، تعيش معها، تحت ظلالها، دون أن تكون عالةً عليها، هذه هي البتيلة ابتسمت لزوجها المحموم، فانطفأت نار الحمى التي تحرقه. قالت:

- سأسقيها ماء عيني حتى تكبر.

في البداية، كانت تخاف عليها من بائع الجمَّار، الذي كان يقطع بسكين حادة الجمَّار الطري الأبيض، ويبيعه في موسمه. وكانت حينما تسمع صوته، تهرع الى الباب للتأكد من إغلاقه، وتعود مسرعة لتعانق البتيلة.

مرَّ الزمن الجنوبي مشفقاً على البتيلة، فمدت جذورها عميقاً في التربة، وارتفعت قامَتَها عالياً، فكفت المرأة العجوز عن القلق، وصار من المستحيل، على بائع الجمَّار أن ينال منها، لكن خوفاً آخراً اعتراها فجأة، عندما تذكرت حديثاً، دار بين

زوجها وابن أخيه، الذي قضى في الحرب قبيل نهايتها، حكى لعمه حين زاره، في آخر إجازة في الخريف، عن مجزرة رهيبة طالت آلاف النخيل، على ضفتي شط العرب، قُطعت الرؤوس، مخلفة جذوعاً سوداء محروقة، كأنها أعمدة معابد وثنية، رُجِمت بالنار، بأيدي إلهة غاضبة، وحينما سمع العم بذلك، لعن الحرب ومن أشعل فتيلها، وأمدها بالحطب.

في تلك الزيارة الأخيرة، لجندي عائد من جبهة القتال الجنوبية، احضر البتيلة معه، وقال وهو يقدمها هدية لعمه:

- ازرعها في باحة البيت.. لقد وجدتها على مقربة من أمها المحترقة، أمنحها فرصة أخرى لتحيا.

رأت المرآة العجوز في المنام أن يد الحرب المجرمة، امتدت لإبنتها، فقطعت رأسها، ورمتها على قارعة الطريق، لتبول عليها الكلاب السائبة، وتتلطخ بالطين والأوساخ، وحينما استيقظت، هبت مرتاعة لتحضنها وبكت ونذرت لها صيام زكريا، وعندما حل الموعد، صامت على كوز ماء، وقرص شعير، خبزته بيدها، وعند الغروب أخذت كربة من البتيلة، فأوقدت عليها الشموع، وألقتها في نهر الدجلة، وأخذت تراقبها حتى اختفت، مسحورة بالنار الطافية فوق الماء، وعند هبوط الظلام، فقدت مياه النهر أضواء الشموع، وعم الظلام سطحه الهادئ، عادت المرأة العجوز لبيتها، بعد أن اوفت بنذرها .

في ذلك المساء، الذي اجتمعت فيه النسوة، عند ضفة النهر، كما اعتدن على ذلك كل سنة، للإيفاء بنذورهن، وأداء طقس قديم، تمنت في نفسها:

- يا ليت زوجي كان حياً، فيرى البتيلة وقد صارت نخلة باسقة، وارفة الظلال.

انتظرت ان يأتي موسم التلقيح، ببشارة سعيدة، كانت تراقب ظهور أكواز الطلع، من بين فجوات السعف، تنتظر بصبر، إنفتاق الشماريخ، وتحلم بالعذوق المنحنية كالضلوع، مثقلة بالخلال الأخضر الزاهي اللون، المتغير لونه مع إقتراب الصيف، الى صفرة براقة كالذهب، تحت أشعة شمس الظهيرة.

لم تيأس المرأة العجوز، آمنت ان انتظار طويل ينتهي بتحقيق الحلم خير من فقدان الأمل، وأنها في النهاية سترى البتيلة مثقلة وذات حمل، ولكن يبدو أن البتيلة كانت تعاند، تريد ان تواسي أمها المرأة العجوز، بالامتناع عن الحمل، مرت سنتان أخريتان، ولم يتغير الحال.

استدعت الصاعود في موسم التلقيح، فتسلق النخلة حتى وصل لرأسها، ونثر الغبار الذكري الذي يحمله في مقطف على ظهره، وربط الطلوع الذكرية مع الشماريخ الأنثوية المتفتحة، والمستقبلة للغبار الأبيض المصفر، ذو الرائحة النفادة المحببة.

وبعد أن انجز عمله الصعب، تمنى لها حظا سعيدا، اعطته المرأة العجوز اجره وشكرته، وعندما انصرف، وقفت رافعة كفيها للسماء، مبتهلة للخالق العظيم، متأملة روعة صنعه، حتى أنها كانت تتخيل، ان يديها إستطالتا الى العذوق الدانية، وأن أصابعها لامست قلب النخلة، تحسستها بأناملها اليابسة، وسمعت نبضاته تخفق في كفها، وأحيانا تتخيلها تعود كما كانت فسيلاً، تحتويها بين يديها، بحنو الام لطفلها الصغير، وتهمس فرحاً، ها هي تعود صغيرةً كما كانت، حين جاء بها زوجي، ذات نهار ربيعي قديم، تنام هانئة بين يديَّ..

تذكرت ما قالته جارتها أمس، أنها ضربت كنتها العاقر، بالعصا على عجيزتها، لكي تحمل، وقد حملت فعلا، وأنجبت اول مرة، بعد خمس سنوات من الزواج، وشجعتها ان تجرب الطريقة على النخلة، واكدت لها انها ستنجح، فسألتها المرأة العجوز متشككة:

- وهل حملت زوجة ابنك حقا للسبب الذي ذكرتيه، فأجابت بثقة:

- نعم.

فأتهمتها بالكذب، معترضة، ان الأطفال لا يأتون بهذه الطريقة المهينة للكرامة، وأن النخلة تماثل المرأة في رقة مشاعرها، فضحكت جارتها، وسخرت منها، فطردتها المرأة العجوز من بيتها. هرعت المرأة العجوز الى النخلة، عقدت جديلتيها الشائبتين حول جذعها، وقالت: - سامحيني لأَنِّي لم أضرب تلك الجارة الرعناء

بعصاي هذه، احتضنتها وذرفت على جذعها دموعاً سخية وقالت:

- لقد أوفيت بوعدي لزوجي، وسقيتك بدموع عيني..

ابتهلت، وبهمس خافت، إرتجفت شفتاها بدعاء حار: الهي لقد فهمت حكمتك أخيراً، لقد اشفقت علي، لعلمك ان الحرب قائمة، تتجدد كل عقد من الزمن، لذلك لم تهبني مولودا ذكرا، تخطفه مني. لك الحمد والشكر، أتوسل إليك الآن.. أن تمنح بركاتك لابنتي..

في صباح اليوم التالي، أدت طقوسها امام النخلة، بعد صلاة الفجر، ومع أول شعاع سقط على جدائل النخلة، المنحنية كأهلة خضراء، رأت الثمار تطرز العراجين، كأنها قناديل تضيء، لم تستطع احتمال فرحها، الذي غمرها من قمة رأسها حتى قدميها، شعرت انها تطير في الهواء، فهتفت: شكراً لك الهي، لقد استجبت اخيراً لدعائي.

رجل الله

ذاك هو من بعيد..

رأيته، فأثار كل تلك الذكريات القديمة، عن المكان والزمان.

أوقفتني أمامها، رفعت كفها الموشومة، ورسمت دوائر وهمية فوق رأسي، وتمتمت، ليباركك الله يا بني ولتعش عمرا طويلا، بعدد ذرات قبره، وختمت كلماتها بضمة حانية الى صدرها، رفعت نظري باسما، كأي طفل لم يفهم شيئا مما سمعه أو رآه.

هذه هي الصورة التي كلما استعدتها، لبثت لحظة أطول من غيرها، وحفزت ذاكرتي لتنشط، وتسترجع أحداثا آخرى، كاد الزمن ان يدفنها الى الأبد.

بعد أن كبرت، عرفت ماذا كانت تعني أمي بذاك الدعاء الغريب.

رجل الله، الدفين في حجرة بجامع الحي، الذي كان معروفا بإسمه اول الأمر، فهو الذي ابتناه من ماله الخاص، ولكن مع حركة الزمن البطيئة آنذاك، لم يعد أحد يتذكر اسمه الحقيقي، والذين عاصروه، ومن بينهم جدي لأبي، اتفقوا أنه توفي ولا عَقْبَ له، وأن اسمه وكنيته، تدلان على أنه من بلاد آخرى، تختلف لغتها عن هذا البلد، ولكن يجمعهما دين واحد.

كنت أتجنب الإقتراب من الجامع، خوفا من الحجرة، ومهما حاولت أمي ان تبدد مخاوفي، بما تسرد من حكايات عن رجل الله، الطيب الذي كان يحب الأطفال، ويفرحهم بالهدايا والحلوى، في أيام الأعياد وسواها، كانت حكاياتها تذهب ادراج الريح، بسبب ما كنت أسمعه من الأولاد الأكبر مني، كانوا يبثون حكايات مرعبة، بين الأطفال الأصغر سنا، يزعمون انهم يسمعونها من عجائز الحي، والحقيقة أنهم يختلقونها من وحي خيالهم الشيطاني، فكانت تثير مخاوفي، وتجعلني أخشى الإقتراب من المكان، خاصة عند حلول الظلام، حيث تراود

خيالي أشباح ومخلوقات مرعبة، تخرج من الحجرة وتطارد الصغار، ومما زاد تلك المخاوف قوة، ما حدث لإمراة كانت تجلس عند عتبة دارها، تلقت حجرا كاد يودي بحياتها، ذاع الخبر في الحي؛ ان جني الجامع هو الذي قذف الحجر؛ لأنه ينزعج من خروج المرأة وقت العتمة من بيتها، في الحقيقة لم يكن جنيا، كان أحد الأولاد العفاريت، تخيلها كما أسرني جنية سوداء فصدقته، لأنه في هذه المغامرة لم يدع البطولة، بل كان خائفا عندما رآى اسنانها البيضاء تلتمع في الظلام، ولكن أمي عندما أخبرتها لم تصدق أنه إنسي، اصرت أنه جني حقيقي.

تحول الجامع من بيت الله الى بيت الأشباح، واختبأت الخفافيش في سقوفه، فكان صوتها الحاد عندما تطير؛ يثير الرعب في قلوبنا، سمعنا في تلك الأيام، ان خفاشا التصق بوجه امرأة، وفشلت كل المحاولات لانتزاعه، حتى تذكرت إمرأة عجوز، طريقة رجل الله التي كان يستخدمها، فذهبت قبل طلوع الفجر، لمساعدة المرأة المسكينة، وضعت أمام وجهها مصحفا شريفا ومرآة صغيرة، فإرتخت جناحا الخفاش وتركها، ولكن بعد ان قضم قطعة من انفها، كما زعموا، فدعيت بإمرأة الخفاش، أشياء عجيبة كانت تحدث في حينا، لم استطع أن أجد لها تفسيرا، وستظل اسرارا قابعة في أقبية الظلام، حتى يقيض الله رجلا من عباده، يساعد الناس بعلمه على فك الغازها، لنرى من سينبري لتلك المهمة الجليلة!

بدا أن الله حسم الأمر؛ إختار الأستاذ أبا علي المندائي، معلم الرسم؛ كنت في السنة السادسة ابتدائي، كان في كل حصة اثناء الدرس، يردد على مسامعنا عبارته الشهيرة:

" أقرأوا ثم إقرأوا، إستغلوا وقتكم للقراءة، حتى في أوقات الطعام، ضع كتابا قربك، كل واقرأ."

كان معلم الرسم، شخصية جذابة، رساما ومثقفا ذاتيا، علمنا كيف نخلق من الطين أشكالا، تماثل صورها الأصلية، ينفخ فيها من روحه الفنية فتقترب من الحقيقة.

إتبعت نصيحته حرفيا؛ بل قل قدستها؛ بمعناها الإيماني، إنغمست في القراءة فقرأت كثيرا؛ خلال المراحل الدراسية التي تلت الإبتدائية، صعودا للمرحلة

الجامعية، علمتني أن أفكر بمنطق سليم، فأتفق مثلا مع الرأي القائل:

" أن ازدياد معدل الجرائم في المدن الكبرى، إبان الثورة الصناعية في أوربا، يرجع (من بين عوامل آخرى)، الى ضعف الإضاءة في الشوارع، وأن جذور العنصرية ضد الملونين، موغل في القدم، لخوف الإنسان البدائي من الظلام الدامس، لأنه يخفي الأشياء المجهولة عن الأنظار، فهل هذا يا ترى صحيح!

تساءلت.. وماذا عن الأشباح مثلا، فهي بيضاء ولكنها مخيفة ايضا، فقلت في نفسي ربما لأنها تتسكع على هواها في الظلام، لكن رجل الله الذي ظهر لأمي شيء آخر..

سألتها يوما أن تصفه لي، فقالت كأنها رأته حقيقة، هو شيخ طويل، نوراني الوجه، لحيته الطويلة وشعر راسه وثيابه، كلها بيضاء، وابتسامته يا الله، إبتسامة تؤسر القلوب. وكما وصفته رأيته في منامي، قال لي يا بني لا تخف الذين يرقدون في القبور، فهم مسالمون لا يؤذون أحدا، الخوف الذي نخشاه يأتي من الأحياء، الذين يدبون على الأرض أو يطيرون في السماء.

بدد ذلك الحلم الجميل كليا، أوهامي دفعة واحدة، وبعده لم ينجح أحد من الأولاد الأشقياء، أن يضحك على او يسخرمن جبني.

عندما أصبح الجامع مهجورا، عبثت به يد الخراب، واستوطنته الخفافيش، دخلته يوما، قاصدا حجرة الضريح، أزحت التراب المتراكم، فظهر شاهد القبر، الأسم وتاريخ الوفاة، فكتمته في نفسي، لأني أعلم ان ذلك سوف لن يغير شيئا، مما إعتاد عليه الناس، فقد غلبت الصفة (رجل الله) على الموصوف. وظل يحيا في ذاكرة أهل الحي، طوال العشرة عقود الماضية، كما الرجال العظام والأجداد الأفذاذ، يستحقون منا الإحترام والتبجيل.

الأيام قد تحبل بأجنة مشوهة، تُزرع سفاحا في رحم الزمن، فتولد مفاجأت فاجعة، فعندما نشبت حرب الثمان سنوات، أستعاد الجامع المهجور منذ زمن طويل، بعض وظائفه الإجتماعية، فتحولت قاعة الصلاة الى مجلس مواساة

لذوي الضحايا، وقام خادم الجامع بتقديم كؤوس الماء وفناجين القهوة للمعزين، وأسندت التوابيت الخشبية على جدران الجامع الداخلية.

شمس تموز لها طاقة عجائبية، فهي تجفف طينة أحفاد السومريين؛ قبل غيرهم من أهل البلاد، فيشبون عن الطوق قبل أوانهم، وجدتني اقف خاشعا، اوقد شمعة فوق قبر رجل الله، وأقرأ فاتحة الكتاب، في تلك اللحظة شعرت به يقف بجانبي، يمسك كفي، ورغم أنني كنت قادرا على الإفلات من قبضته اللينة، ولكني لم أهرب؛ كما كنت أفعل قديما؛ حينما يتملكني الخوف، بالعكس؛ شعرت أنني عدت صبيا، يغمرني إطمئنان نفسي، وفرح يفوق الوصف، ببطء إنفلت اصابعه، وعدت لسيرتي الأولى، مغمورا بفرح تمنيت ان يدوم أطول مدة، كان الخادم لايزال ينظر الي؛ حتى انتهيت من القراءة، وعندما التفتُ أنزل كفيه ومسحهما بوجهه، قفزت لذاكرتي كل الصور دفعة واحدة، متداخلة متدافعة، مختلطة بالأمكنة والأزمنة والناس، أوقفت جريانها رؤية خادم الجامع المجذوب، الذي يقف الآن أمامي ولم يكن موجودا آنذاك.

مرة رأيته عند جرف النهر، سمع بصبي غريق، وقفت أمه طوال النهار باكية، تتضرع ان تظهر جثته، قبل أفول الشمس، خوفا الا تراها العيون في الليل، ويجرفها التيار الى الهور القريب أو البحر البعيد، وفجأة بعد أن تمتم خادم الجامع بكلمات غير مفهومة، ظهرت الجثة طافية على وجه الماء، فتمكنوا من انتشالها، ذاع صيته في أماكن آخرى بالمدينة، فكانت النسوة يأتين بالشموع والبخور، وأخريات يقدمن النذور، ويطبعن أكفهن الملطخة بالحناء، على باب الجامع الخشبي المهجور، كانت بعض تلك اللطخات طرية تفوح منها رائحة الحناء الخضراء، وأخرى داكنة جفت منذ زمن، وترى في اسفله بصمات اصابع صغيرة.

خادم الجامع الذي بكى بحرقة، ونشج كطفل متألم؛ تعاطف بصدق مع الام، الأخت، الزوجة والأبنة، اللاتي نثرن دموعهن، يتوسلن بالسماء؛ لعلها تفتح بابا أو حتى كوة صغيرة، ليصعد دعاؤهن الى الله، ولكنها ظلت مؤصدة، لم تستجب

لهن، ولم تتوقف الحرب، استمرت تحصد الأرواح بلا هوادة، ونفدت التوابيت من الجامع، كان خادمه المجذوب يحملها على ظهره، ثم يضعها على الأرض، وينزل فيها ضحايا السنوات الأربع الأولى؛ من عمرها المشؤوم.

تذكرته يتخذ تابوتا ينام فيه إتقاء برد الشتاء، متدثرا بأسماله وبمعطف عسكري، ورثه عن جندي تولى غسله وتكفينه، كان بعض أشقياء الأطفال يرمون التابوت بالحجارة؛ من بين قضبان النوافذ التي تحطم زجاجها، فيهب راميا غطاء التابوت جانبا، يفرون بسرعة ويختفون في بيوتهم، فلا يتمكن منهم، وإن أمسك بأحدهم فإنه لا يؤذيه ابدا، وإنما يحمله بين ذراعيه الى بيته، ويترجى اهله الا يعاقبونه، كان يقول لهم انه سامحه من كل قلبه، كان يعرف جميع أهل الحي، أحبوه وأحبهم، لم يبخلوا عليه رغم فقرهم، بقليل من النقود، الملابس المستعملة، والطعام، جئت امسية لأوقد شمعة على قبر رجل الله، فوجدته يقيم صلاته واقفا رافعا يديه الى أعلى ما يستطيع، يصلي صامتا، إنتظرته حتى فرغ، سألته وكأنني أكذب نظري، أكنت تصلي، هز رأسه بالإيجاب، قلت في نفسي تلك والله هي الصلاة، كان الجامع بيته الذي يأوي اليه، لم أكن أعرف أسمه، فالبعض يدعونه بالمذهول او المجذوب، أو اي أسم يخطر على بالهم، فسألته عن اسمه فأخبرني، ولشدة دهشتي كان اسمه وكنيته مطابقا تماما، لما قرأته على شاهد قبر رجل الله.

هو الذي رأيته هناك من بعيد..

المرأة الحمامة

لأول مرة يظهر الحمام في حينا، راح يحلق حرا، او يحط على أسطح المنازل، اعتاد أهل الحي على رؤية طيور آخرى؛ كالببغاء الأبيض*، الذي ينتصب عرفه الأصفرعندما يغضب، والغراب الأسود؛ الذي يشبه صوته بكاء طفل صغير، هذه وغيرها كنا نراها عادة كل يوم، فهي ليست غريبة عن بيئتها الطبيعة، تطير من شجرة الى أخرى، ولكن الحمام شيء آخر، فهو طير مدجن، يربى عادة في البيوت.

تساءلوا من اين جاء الحمام الى حينا الجديد.

أقيم الحي حديثا، على مساحة ارض كبيرة، كانت في الأصل مزارع، ومن قبل كانت تغطيها اشجار اليوكالبتوس العالية.

كنت من الأوائل الذين سكنوا الحي، أسمع عن الأفاعي الخطرة، ولكن لم ارها، ربما كانت شائعة مغرضة لتخوفينا، نشرها أحد عمال المزارع الذي فقد عمله.

في البداية كان للمكان وجهان؛ وجه يحمل صورة العمران، الزاحف والمقتحم، والأخر صورة مشوهة لانقاض مزارع؛ مجموعة صغيرة من أبقار تنتظر البيع، ورجل يتجول، يمتطي ظهر حصان، نسمع وقع حوافره على أسفلت الشارع الممهد قبل الشروع بالبناء، يوقظنا صباحا، كأنه يتوعد البيوت القليلة المشيدة حديثا، بلعنه الأفاعي السامة، التي ستهاجم الحي عند حلول الصيف، كان منظره طريفا، واستمر على استعراضه اليومي، حتى اختفى فجأة، مع إختفاء الأبقار نهائيا.

في الحقيقة تزامن ظهور الحمام مع إنتقال إمرأة عجوز، جاءت لتقيم في الحي مع إبنها الشاب، حدس البعض ان الأبن ربما هاو لتربية الحمام، ومعلوم ان هذا الطير ذكي، يمتلك في مخه جهازا بدقة إبرة البوصلة، فهل يا ترى ان الأبن قبل انتقالهما؛ درب حمامة واحدة لتهتدي للمكان، فقادت السرب اليه.. هذا شيء في الحقيقة محض حدس وتخمين، ولم يجزم به أحد، حتى يظهر ما يؤكده او يدحضه،

بادر جاريهما على جانبي بيت العجوز؛ بالقيام بمهمة التجسس عليهما، لكن بحذر، كيلا يتجاوزا حدود الخصوصية، ولكن مهمتهم فشلت، ولم تصل لنتيجة تذكر، لم يشاهدوا قفصا أو حماما او اي شيء له صلة بالحمام.

في صباح اليوم الأول باكرا، خرجت المرأة العجوز تحمل إناء، افرغته عند أصل شجرة يوكالبتوس، على جانب الرصيف، وعادت لتقف امام باب دارها، هبطت ست حمامات رمادية، من أحد المنزلين، الذي يقع منزل العجوز بينهما، وبدأت تلقط الحب، ثم نزلت مجموعة اخرى، إكتمل العدد عشر حمامات كلهن بلون رمادي، ميزت العجوز واحدة من بينهن، كتمت فرحتها في قلبها، كما لو انه سر لا تحب ان تبوح به لأحد.

ظلت تراقبهن حتى طرن واختفين عن الأنظار، دون أن يلحظ أحد من الجيران شيئا مما حدث.

بدأ جاريها يتذمران من الأوساخ؛ عندما يستريح الحمام على قرميد السطوح، فإشتكيا عليها عند بلدية المنطقة، بأن حمامها اتلف لون سياراتهم؛ وقالوا ان البقع البيضاء التي يخلفها على معدن السيارة؛ أدت الى تغيير لونها، خاصة وأنها كانت سوداء، وطلبوا منها تعويضا، لكن البلدية نصحت بأن يطالبوا شركة التأمين بذلك، باءت كل محاولاتهم بتحميلها مسؤولية الأضرار بالفشل.

اشتروا صقرا ليقوم بمهمة مهاجمة الحمام، ولكن عندما أطلقوه إنهزم في الجولة الأولى أمام الكوكاتوو*؛ الببغاء الأبيض، ذو المزاج الحاد، الودود جدا مع الحمام، لا يقترب منهن عندما يلتقطن الحب، لأنه يفضل الإنعزال عندما يتناول طعامه بيده. لم تبق لهم حيلة سوى الشركة العقارية، يطلبوا منها ان تطردهما من البيت، ولكن الأبن كان يدفع بدل الإيجار بإنتظام، كما ان التفتيش الروتيني؛ للاطلاع على نظافة المنزل وسلامته، ينتهي عادة بأن كل شيء على ما يرام. أخيرا أشاعوا ان العجوز تمارس السحر، تتسلل ليلا الى الأجمة أمام البيت، وتتحدث مع الوليبو* بلغة الأبورجني، وكانت هذه التهمة محض هراء، كذبتها حقيقة ان المرأة العجوز تكاد ان تكون نصف عمياء، وأنها لا تفقه شيئا من لغة الأبورجني، لأنها

ليست منهم في الأصل.

مرت أيام لم تخرج العجوز لتطعم حمامها، فكان الأبن يقوم بذلك قبل ذهابه للعمل. لم يجرأ أحد ان يعترضه، فالشاب كان ذو بنية رياضية قوية، موشوم الكتفين والذراعين.

وفي أحد الأيام، بينما كان سرب الحمام يستريح على أحد السطحين، ينتظر الطعام، وقفت سيارة نقل الموتى امام منزل العجوز، لم يسمع أحد صوت بكاء، دخل أربعة رجال ببدلات سوداء، يحملون التابوت الخشبي المصقول والمدهون جيدا، وضعوا المرأة العجوز فيه، أرتاح ظهرها على القماش الأبيض الوثير، وهي بكامل ملابسها، خرجوا وادخلوه في السيارة، وتحركوا ببطء تبعهم الحمام فوقها بإتساق عجيب مع حركتها، اختفت السيارة وسرب الحمام عن الأنظار.

في اليوم التالي كانت هنالك حمامة بيضاء جديدة ضمن سرب الحمام، تقف مع حمامة تحمل حجلا برجلها، خرج الشاب وأفرغ الأناء كما كانت تفعل امه، عند اصل شجرة اليوكالبتوس، وأخذ ينظر بدهشة للحمامتين، كنت بالصدفة هناك، فسألت الشاب عن الحمامة المحجلة، فقال كانت رجلها مكسورة قبل انتقالنا للحي، فإعتنت والدتي بها حتى شفيت، فوضعت هذا الحجل لتميزها، وهي التي قادت السرب الى هنا، فسألته عن الحمامة البيضاء التي لم يرها أحد من قبل، اجابني، صدقني لا أعلم عنها شئيا، لكن شائعة انتشرت بين أهل الحي، ان الحمامة البيضاء هي روح المرأة العجوز، فتحولت المرأة من ساحرة شريرة الى مقدسة في أعين أهل الحي.

* الببغاء الأبيض الأسترالي، ويسمى الكوكاتوو، يمتاز بعرفه الأصفر الفسفوري.
* الوليبي، فصيلة من الكنغر الأسترالي الرمادي اللون، والأصغر حجما. * الأبورجني، هم سكان استراليا الأصليون، منذ أكثر من ستين ألف سنة.

السيدة سين وقطتها يسترداي

كان الزقاق الذي سرنا فيه ضيقاً، أشبه بمرآة عاكسة لبيوت متقابلة، كلها متشابهة، حتى في لون الأبواب والنوافذ، التي رُكبت عليها مبردات الهواء، كانت كلها بلون ازرق.

جئنا هنا لزيارة السيدة سين، التي رحبت بنا بطريقتها الخاصة، غير المتكلفة، جلسنا على كنبة تتسع لإثنين، زوجتي وأنا، وجلست هي على كرسي امامنا، سألتها عن ولديها، دمعت عيناها، خشيت ان زدت كلمة، فقد تنفجر باكية، قالت بعد أن كفكفت عبراتها، ومسحت دموعها، بكم ثوبها " هاجرا بعدما اشتد علينا الحصار الأمريكي "

وتفاديا لنظرة الشفقة التي ارتسمت على وجهينا، اسرعت لتقول" هما بخير، ويبعثان ما يغطي حاجتي"

اعرفها، امرأة ذات نفس ابية، توقعت في تلك اللحظة الرفض، إن عرضت عليها المساعدة، هذا بالإضافة الى انني سأحرجها، وربما أجرح مشاعرها.

استأذنت منا لتقدم لنا شيئا، ألقيت نظرة على أثاث غرفة الإستقبال، فأدركت مدى الإختلاف الذي طرأ على حياتها، فقد كانت قبل عودتها الإضطرارية للوطن، تعيش في شقة كبيرة، بمنطقة السالمية الراقية بالكويت، المطلة على البحر، نظرة سريعة، تكفي المرء ان يعرف، انها الآن في أسوأ حال.

لن انسي أبداً تلك الظروف التي مرت بنا، عندما اجبرتني الحرب على الهرب، استجابة لمبادئي الإنسانية الرافضة للعنف، كما فعل آخرون على إختلاف مشاربهم ونواياهم وأهدافهم، فأنا نوعاً ما مثل هيرمان هسه، في رفضه للحرب التي أثارها هتلر، واتخذ من مدينة سويسرية مكانا لإقامته، وهناك ألف كتابه

" إذا ما استمرت الحرب*" ولكن مع اختلاف واضح، ان سويسرا كانت على

الحياد، اما الكويت فلم تكن كذلك، لذا كان على الذين التجأوا اليها، توخي الحذر والحيطة قبل الجهر بآرائهم السياسية، او مواقفهم الرافضة للحرب.

في تلك الأيام الصعبة، رحبت بنا السيدة سين واستضافتنا في شقتها لفترة قصيرة، على كل حال، في معمعان تلك الظروف الحرجة، مدت لنا السيدة سين، يدها الكريمة، حتى حصلنا على العمل والسكن، واستقر بنا المقام، وكأي مغترب لبلد آخر، يحتاج الى التعارف على أبناء بلده، خاصة أولئك الذين ينسجم معهم، ويرتاح لصداقتهم، ومن حسن الحظ ان معرفتنا بالسيدة سين قديمة، لذا تبادلنا معها الزيارات العائلية، طوال فترة اقامتنا، التي استمرت حتى إحتلال الكويت في الثامن من أغسطس، آب 1990.

قبل ان نودع السيدة سين، نأمل في زيارة آخرى، ان نؤدي لها واجب المساعدة المطلوبة التي تستحقها.

تذكرت فجأة القط يسترداي، فسألتها عنه، تبسمت، قالت انه لا يزال معي، فقلت لقد ظل وفيا ومخلصاً لك، هزت رأسها بالإيجاب، نادته، فجاء كطفل يحبو، ندت مني صرخة خافته، يا إلهي.. لقد كبر الهر وهرم كثيرا، وبطؤت حركته.

قعد بين قدميها، وراح يتطلع الينا، كأنه يحاول ان يتذكرنا، غشت وجهه كآبة حزن، لم تفت عن العين الفاحصة، قلت لها، لم أكن أتوقع ان اراه حياً، قالت، انت تعرف جانباً من حياته، وآخر لا تعرفه، استأذنتنا، خرجت وعادت بيدها رزمة أوراق، مدتها إليَّ، خذها أقرأها، فيها كل ما تحب ان تعرفه عنه.. وعني، اعرف أنك تهوى الكتابة، لعلك تجد فيها ما يثير اهتمامك، فتكتبه وتنشره، ولكن رجاء لا تنسبه لي شخصياً، دع القصة تُسردْ من دون ذكر الأسماء، لتكن مثلا سيرة ذاتية لإمرأة مجهولة وقطها، اخذت الأوراق، دون ان الفظ كلمة، صافحتها مودعاً ومضينا.

في البيت تركت الأوراق على المنضدة الجانبية لسرير النوم، شعرت ان مجرد تصفحها، يعتبر انتهاكاً لخصوصيتها، رغم انها منحتني الإذن بالإطلاع على ما فيها، كنت أحيانا اختلس النظر اليها، فأتراجع دون ان أجرأ فأمد يدي، بقت في

مكانها لعدة أيام، قمنا بأكثر من زيارة للسيدة سين، تمكنا في إحداها وبصعوبة بالغة، ان نقنعها على قبول مساعدتنا المالية. سألتني عن الأوراق، قبل ان نودعها: أكيد قرأتها، فاعتذرت بالإنشغال وضيق الوقت، وبهذا التبرير لم أقطع بشيء، بعد تلك الزيارة، انكببت اقرأ الأوراق، وأكتب الملاحظات على هوامشها، حتى أكملت القصة وبصيغة ضمير المتكلم، أحب ان انبه القارئ، انني سأتدخل عند الضرورة، كشاهد عيان، على الإحداث التي تسردها السيدة، والمدونة في الأوراق بخط يدها، وما قمت به، كان مجرد إعادة صياغتها، لتناسب أساليب كتابة القصة القصيرة، وهي كما يأتي:

كان يوما عاديا، يبدأ عند السادسة صباحا، بإعداد الطعام لترويقة الصباح، يخرج زوجي عادة قبلي للعمل، بعد ان يتناول طعامه بسرعة، أقوم انا بمساعدة الولدين على ارتداء ملابسهما المدرسية، وهما يلتهمان طعامهما، ولا أنسى أبدا ان ادس في حقيبتيهما ساندويشتين، تصبيرة لما قبل العودة الى البيت، اي بعد الواحدة ظهرا.

حكيت لزميلاتي في مكان العمل، عن القط الذي عثرت عليه، اقترحت احداهن ان نسميه يسترداي، اعجبني الأسم، فهو جميل ومودرن، لكنني قلت لماذا لا ندعوه أسعد، قالت الزميلة أوكي، الأسم الأول يشير الى الماضي، والثاني للمستقبل، وهو أيضا جميل، ويضفي على هذا المخلوق الضعيف، الذي عثرت عليه اليوم، شيء من التألق، الجاذبية، الفرح، أدهشني انني اخترت له أسماً جميلا، جاء عفو الخاطر، لم أفكر به قبل لحظة واحدة، فقلت في نفسي يا لها من مصادفة جميلة.

عندما عدنا الى البيت، كان القط الصغير، يموء تحت مائدة الطعام، وينوص بين قوائم الكراسي، استأنس بالمكان الدافئ، المفروش بالموكيت الرمادي، الشبيه بلونه، عدا البياض الذي يبقع صدره وظهره، راح الولدان يداعبانه، يمسدان على رأسه وظهره، سألني الأكبر، ماما ماذا نسميه.. قلت أسعد، واحياناً عندما نفكر بماضيه، ندعوه يسترداي، اتفقنا.. هل اعجبكما الاسمين، صرخا هيه هيه، وأخذا ينطان حوله متحمسين، ذكرتهما ان ذلك يزعج الجيران تحتنا، فهدئا.

لا زلت اذكر صباح ذلك اليوم، نزلت من الطابق الثاني، لأرمي كيس القمامة في حاوية العمارة، سمعت مواءً خافتاً، كان المسكين يلتصق خائفاً بالحاوية، انحنيت علية، رأيته يغمض عينيه، كالجراء الحديثة الولادة، يحرك رأسه حركة بطيئة، عدت للشقة، احمله بين يدي، دلقت حليباً في صحن غير عميق، وقربته منه، أخذ يلعق حافته المستديرة، فتح عينيه قليلا، مد رأسه، وأخذ يتحسس الحليب بلسانه الوردي، كما لو انه يريد ان يتذوقه اولاً، نظرت اليه متعاطفة، وفي نفسي تساؤل حزين، يا له من مخلوق مسكين، تُرى هل سبق ان ذاق الحليب من قبل، هل ارضعته امه من أثدائها البارزة كحبات العنب، والغزيرة باللبن، قبل ان تنفصل عنه، يبدو ان المسكين قد حرم حتى من قطرة واحدة يتذوقها، ربما تركته الأم لسبب ما، أوحدث لها ما حدث، فأخذه احدهم ورماه جنب الحاوية، او ان الأم كانت قطة منزلية، تخلوا عنها مع صغارها، على كل الأحوال، وجد من يرعاه، الولدان احباه، كانا يلحان علي ان اشتري لهما قطاً شيرازياً او سيامياً ، لكنني كنت ارفض دائما، ليس لدي الوقت الكافي حتى لنفسي، كما انني كنت أخشى تعلقهما عاطفيا به، الأطفال سريعو التعلق بالحيوان، سواء كان قطاً او كلباً، او حتى طيرا في قفص، ناهيك عن العناية المطلوبة، من تلقيح وتنظيف وما اليه، مسؤولية أخلاقية، وعاطفية أيضا، اذا ما حدث له شيء، سيكون تأثيره العاطفي على الولدين مؤلماً، وما يدريني كيف سأواجه ذلك، بعد ان اتعلق به، لكن ها انا ذا اتقبل ما كنت اخشاه.

سيدتي سين لا عليك، لقد وضعتكما الصدفة في طريق واحد.. ليسامحني القارئ لأنني أربكت بتدخلي تيار السرد، لنعد للسيدة سين وقطها.

اذكر أني سحبت الطفلين، عندما كنت اروم مغادرة الشقة للذهاب للعمل، كانا يتشبثان بقوة بكراسي مائدة الطعام، يتوسلان بي ان ابقيهما مع القط، وأذكر أيضاً انني ألقيت عليه نظرة شفيقة عندما تركناه لوحده، لكنني ارتحت واطمأنت نفسي، حين رأيته قد شبع، وتمدد غافياً على الموكيت الرمادي، أسرعنا نهبط السلالم، ومشينا الى ساحة العمارة، حيث ركنت سيارتي.

لن أنسى ابداً، ما حدث في ذلك اليوم، أذكر كل دقائق ذلك الصباح، الذي انطبع في ذاكرتي، بطابع مزيج من الفرح والحزن، لا أعرف لماذا أحببت ذلك الحيوان الأليف، وتعلقت به بقوة.

لأعود أحكي عن نفسي، فقدت والدي وأنا صغيرة، وفي الثامنة عشر، فُرض علي زواج قسري، من رجل يكبرني عقدين على الأقل، لم أحبه، كانت غرفة النوم الشيء الوحيد الذي يجمعنا، وسريرها بالنسبة لي اشبه بنسيج العنكبوت، كان هو يعتبر العلاقة الجنسية، حق شرعي مقدس، لا يتنازل عنه، وعدا ذلك لم يقم له وزناً، او يعر له أي إهتمام يذكر، وعندما ابديت له رغبتي بالدراسة، راح يسخر مني، ولا غرابة في ذلك، فهورجل تقليدي، يؤدي واجبه كأي زوج ، على الوجه المطلوب إجتماعيا، قد لا يرضي ذلك كل امرأة، وأن كان البعض منهن يعتبرنه زوجاً مقبولا، على كل حال، لم اكن انا من هذا الصنف، كنت افهم ان زمن العلاقة الحقيقية المتكافئة، والمشتركة بين الزوجين، لم يحن وقته بعد، ولكنه سيأتي آجلا ام عاجلا، ومع ذلك كنت زوجة قانعة، لا انتظر منه شئيا افضل مما هو عليه، كنت اريد ان احقق ذاتي في شيء آخر احبه، يرضي طموحي، ينتشلني من حياتي السطحية التافهة، التي بدأت تذوي يوماً بعد يوم، خاصة عندما انتقلت من بلدي، لأعيش معه، حيث يقيم ويعمل، حرمني من ابسط حق، انجبت له الطفل الأول في السنة الأولى، وجاء الثاني بعد سنتين، وبينما كان الولدان يكبران، ويتقدمان في مراحل الدراسة، كانت علاقتنا تذوي مع مرور الزمن، وتزداد برودا وابتعاداً، حتى أصبحت اشبه بالميتة سريرياً.

في المقابل كونا نحن الأعضاء الأربعة (الولدان، يسترداي، وأنا) أسرة بدون أب، انا الأم الشابة، في أوائل الثلاثينات، امرأة جميلة وناضجة، امتزجت حياتنا ببعض، فكان عيد ميلاد يسترداي؛ هو يوم عثرت عليه في الثالث من يوليو/ تموز، عام الف وتسعمائة وست وثمانون، كانت مناسبة هامة، لا تقل أهمية، عن عيدي ميلادي الولدين، نحتفي بها كل عام، وفِي هذا العام أطفأ يسترداي اربع شمعات، موزعة حول كعكة على شكل قطة، وقد بدأت عليه علامات شيخوخة مبكرة.

كان يسترداي او القط أسعد هو التجربة الجديدة في حياتي، بعد ان كبر الولدان، وصارا يعتمدان على نفسيهما، ولكن زوجي لم يرق له ذلك، وكنت كلما أمعن في إيذاءه، ازداد تعلقا به، حتى ان زوجي المسكين من شدة غيرته، اعتقد انني سأتخلى عنه قريباً، من أجل القط.

عندما اكمل يسترداي نصف السنة الأولى من عمره، دخل مرحلة البلوغ، راح ينثر رذاذ بوله في زوايا صالة الإستقبال، لجذب الإناث، انتبهت للرائحة النفاذة، فنظفت المكان وعطرته، وتفاديا لأي مشكلة يثيرها زوجي الذي يكرهه أصلا، رحت اتركه في ساحة العمارة، عندما أكون خارج البيت، كان زوجي يريد اخذه للطبيب البيطري لإخصاءه، لكنني اعرف نواياه العدائية تجاهه ، فهو في الحقيقة كان يريد التخلص منه نهائياً، فلم أثق به، لذا عارضته، لإحباط خطته، لم تنته المشكلة بإنتهاء موسم التزاوج ، بل ازدادت كل يوم، بسبب اصراري على الاحتفاظ به، حتى وصل به الشك، بإتهامي انني امارس الجنس معه، فيقول مستهزئا، دعي عشيقك يسترداي يشبع غريزتك الجائعة للجنس..

تقاعد زوجي وحصل على مكافأة مالية، عن نهاية خدمته الطويلة، وفِي تلك السنة، تفجر نزاع عنيف بين البلدين، بلدي الأصلي والبلد الذي نقيم فيه، لم يكن يهمني قط، ايهما على حق، لو لم تتطور الأمور، وتنته الى غزو وإحتلال، غير مجرى حياتي الى الأبد، كان ذلك في أواخر العطلة الصيفية للمدارس.

لم أهتم بشيءٍ، عدا مستقبل الولدين الدراسي، كما انني لم أشعر بأي ميزة خاصة، نتيجة احتلال وطني الأم، للبلد الذي أقيم فيه منذ اكثرمن عقد ونصف، بالعكس، فقدت الإحساس بالأمان، رأيت الناس لأول مرة على حقيقتهم، ينقلبون على انفسهم، ولَم تعد الحياة في ظل غياب الدولة، كما كانت من قبل، قائمة على إحترام القانون، انتشرت السرقات على نطاق واسع، وتطاول خدم المنازل على مخدوميهم، البعض منهم فروا، بعد ان سرقوا أشياء ثمينة، وبدا من المألوف رؤيتهم يتسكعون في الشوارع، يتجاهرون بالسكر، يرفعون قنان البيرة، ويطوقون خصور صديقاتهم..

اسمحوا لي ان اقاطع السيدة سين، وأضيف على ما ذكرت، فأنا نفسي كنت شاهداً على الأحداث، رأيت زوجها مرة وبالصدفة، يعانق خادمة اسيوية، وسط مجموعة من السكارى، خدم المنازل، لم أجرأ على إنتقاد سلوكه، فقد جاهر بتأييده للغزو والإحتلال، كما انه انضم للجيش الشعبي، وارتدى بزتهم الزيتونية اللون، وحمل رشاشا، وتمنطق بمسدس يلتصق بخاصرته، كنت اتجنب ان اخوض معه نقاشاً عن شرعية الاحتلال، او الضم القسري، الذي اعتبره هو شرعيا، كما كانت تروج له آنذاك وسائل اعلام النظام، بعودة الفرع الى للأصل.

ما شاهدته من تحول جذري مفاجئ، جعلني أفكر ان الفوضى شيء مرادف للكفر، وأن النظام قرين للإيمان، هذا ما خطر لي عندما كنت اتجول وارى مظاهر الإنفلات في الشارع، وعند محطات الوقود، وفي الأسواق المركزية، كل شيء انقلب رأسا على عقب.. لنعد بعد هذه المداخلة الى السيدة سين.

تعاون زوجي مع المحتل، واستفادوا من معرفته الطويلة بالبلد، اما علاقته معي فإزدادت تدهورا، وتضاعف إضطهاده ليسترداي، وبعد محاولته الفاشلة لتسميمه، والتي نجا منها، لأنه لم يكن يأكل من يد أحد غيري، صرت يقظة، فكنت أثناء غيابي أودعه عند صديقتي؛ التي تسكن في نفس العمارة، ريثما اعود الى البيت، ولولا حذري لكان من الممكن ان يقتله بطريقة او بآخرى.

يسترداي ذكي جدا، خصصت له المرحاض الشرقي، وعلمته كيف يستعمله كالآدمي، وكّنا نحن نستعمل الآخر الغربي، وبذلك استغنى في وقت مبكر، عن طبق الرمل الذي كان يتبرز او يبول فيه، علمته ان يطفئ مفاتيح الأضوية التي ننساها مضاءة، تعلم أشياء كثيرة، علمته كيف يلاعب أطفال الضيوف، ويصف الأحذية خارج الشقة، على قطعة المسح.

كنت أكفاؤه بإكسسوارات جميلة، تزين رقبته، وأعرضه على البيطري إذا الم به مغص، وعامة كأي قط كان يمتنع عن الطعام ليوم او يومين، حتى يستعيد عافيته، ساءت علاقتي بزوجي؛ بسبب محاولاته العديدة الفاشلة لخطفه، أدت أخيراً الى إنفصالنا، وظل الحال كما هو، حتى اختفى زوجي فجأة قبل التحرير،

فارتحت وشعرت بالأمان.

في نهاية تلك السنة، كان الإستعداد يجري على قدم وساق، لتحرير المدينة، بدأت العمليات العسكرية تقترب، كنّا نسمع دوي القصف الجوي، فكرت بالهرب، ليس خوفاً من جريمة اقترفتها، ولكنني ان بقيت، سأعاقب بجريرة زوجي الذي تعاون مع المحتل، كنت أؤجل السفر كل يوم، فقد اعتدت العيش في هذا البلد، اين سأذهب، انا امرأة لا أملك ما يكفي من النقود، لأعيش بدون عمل، مع ولدين في سن المراهقة، وقط بدأ يشيخ وتبطئ حركته، اخيراً قررت المغادرة، وضبت الحقائب، وأخذت ما نحتاج لرحلة محفوفة بالخطر.

تركت شقتي بما فيها من أثاث، واتجهنا بعد الظهيرة شمالا، على الطريق الصحراوي الذي سيعرف فيما بعد بطريق الموت، قطعنا مسافة قصيرة فبدأ دوي الطائرات يسمع من بعيد، ادركت ان توقيت السفر كان خاطئا، توقفت على جانب الطريق، سمعت صوتا يناديني، يصرخ انزلوا قبل ان تقترب الطائرات، كان ذلك صوت ضابط عراقي، يختبئ في حفرة كبيرة، مع جنديين آخرين، وعندما رأوني مع الولدين، اخلى الجنديان مكانهما، واختفيا في حفرة آخرى، نزل الولدان للحفرة مع الضابط، صرخت يا للغباء تركته في السيارة، حاول الضابط ان يمنعني، ويقوم هو بالذهاب، لكنني اسرعت راكضة، رأيت يسترداي ينظر للطريق، من وراء الزجاج المغلق، حملته وعدت مسرعة، فسقطت حقيبتي عن كتفي في عرض الطريق، تبسم الضابط حينما رآنا، شكرته، قلت في نفسي ليحميك الله، انت رجل طيب، لا ادري بماذا كان يفكر، هل فكر قبل ان يراني عائدة مع القط، بأنني لشدة إرتباكي تركت طفلا في السيارة، على أي حال، يستحق حتى الحيوان ان نفكر به، نحافظ على حياته، وليس هناك حياة أثمن من آخرى، هذا ما كنت احب ان يفكر به الضابط، اذا كان يفكر بغير ذلك، وفِي النهاية كلنا سنموت، انفلت القط من بين يدي، ركض بسرعة نحو الحقيبة، التقطها بين اسنانه، وعاد بها، سمعت الجنديان يهتفان ويصفقان له، ضحكا كثيرا تلك اللحظة، التي ستبقى خالدة الى الأبد، لأنها بددت الخوف الذي كان يخيم علينا.

بتنا تلك الليلة في الحفرة، وعندما طلع الفجر، وانكشف الظلام قليلا، طلب مني الضابط ان ارحل سريعاً، تركنا الحفرة، واتجهنا للسيارة، جلس الولدان في المقعد الخلفي وبينهما يستردای، فتحت الصندوق واخرجت بعض المعلبات وقناني المياه، ومواد غذائية، وركضت بما حملت الى الحفرة، شكرت الضابط، أعطيته هذه الأشياء، ودعته متمنية لهم السلامة، وعدت للسيارة، انطلقت على طريق، لا اعلم الى اين يقودني، الى طرق محفوفة بالرعب والموت.

انتهى سرد السيدة سين كما قرأته مكتوبا على الأوراق، كل ما حدث لها وليستردای.

اتفقت مع زوجتي ان نزورها، لأعيد لها الأوراق، وأقرأ لها القصة التي كتبتها، لم أتوقع ان تكون للقصة نهاية آخرى غير التي انتهت بها، استقبلتنا بثوب اسود، لم نجرأ ان نسألها، خوفاً ان يكون قد حصل شيء مكروه لولديها المغتربين، جلسنا صامتين، انفجرت باكية، قالت:

"رحل عني يستردای أخيراً وتركني وحيدة "

اعتقدت ربما أنه خرج وتاه، لكنها قالت بحزن مات، رفعت يدي متألما، وقلت ليرحمه الله، كما نفعل عادة طالبين الرحمة للأموات، نظرت لي زوجتي فأنزلت كفيَّ، وقلت لترقد روحه بسلام الى الأبد.

* مذكرات في الحب والحرب والسلام.
* منطقة تيسين المشمسة/ أوتيتشينو، كانتون في سويسرا، يتكلم قاطنوه الإيطالية بالدرجة الأولى.

الحلية الذهبية

راح وهو جالس لوحده، ينظر من وراء نظارته الطبية، في ارجاء غرفة الاستقبال، الفارغة تقريبا، لم يتبق من اثاثها الفاخر، سوى جهاز التلفاز، المركون في احدى الزوايا، رفع نظره الكليل الى صور العائلة، صورة زوجته، شريط اسود، على زاوية اطارها الأيسر. ابنه بالروب الجامعي الأسود، والقبعة المربعة، وابنته المتخرجة في كلية الطب بنفس الزي، وصورها مع اطفالها في اعمار مختلفة، إطار خشبي اسود، مستطيل وكبير، يتوسط الجدار المقابل للباب، قرأ بصمت حزين، من وراء الزجاج المضاء بشعاع شمس الظهيرة، الحروف البارزة والأنيقة، بالخط الكوفي المزخرف " لئن شكرتم لأزيدنكم".

ابتسم بمرارة بطل خسر معركة، ولكن لم يهزم نهائيا، قال لنفسه، اسوأ المعارك تلك التي لا تقدر على رد عدوانها عليك، وليس لديك إلا الصبر الجميل.

هناك ايضا كرسيان بلاستيكيان، بقيا من كراسي الحديقة، التي اشتراها بائع متجول، يقود عربة يجرها حصان هزيل، مكدود من الدوران على البيوت، يشتري كل شيء يباع بثمن رخيص.

كل ما تبقى، الكرسي الذي يجلس عليه، والآخر الذي في المطبخ، مع منضدة الحديقة التي تستخدم كمائدة طعام.

كانا عندما تزورهما ابنتهما، مع زوجها واطفالهم، يحلو لهم الجلوس في الحديقة الخلفية، في ليالي الصيف الحارة، يستمتعون وهم يتحدثون، بهوئها اللطيف.

كانت ايام جميلة.

غرفة الجلوس الخاوية، كانت تضم طقم كنبات فاخر، منجد بقماش فستقي اخضر زاه، مطرز بخيوط ذهبية اللون، وقطعة اثاث جميلة من خشب البلوط، تحمل جهاز التلفاز، وقد اعتادا آنذاك مشاهدة فيلم السهرة معا، حتى داهمهما

الحصار كالمنية العاجلة، فقلب حياتهما رأسا على عقب، فكانا بالكاد يجدان شيئا مسليا في برامج التلفاز، دون ان ينغص متعتهما البريئة، ظهور اعلان مفاجئ، او خبر مزعج عن الحصار، الذي كما وصفه، بسوء هضم متبادل، في العلاقات الدبلوماسية بين اميركا والعراق، او بالأحرى بين رئيسا البلدين. كانت اعراضه المرضية، ان يحتمل الشعب الجوع، كعقاب مفروض عليه بالقوة، ايصدق أحد، او هل من المعقول، ان يتخاصم اثنان، بينما تكال اللكمات القوية على المتفرج!

اعتاد الجلوس مع زوجته، قبل ان يذهبا للنوم، يتجاذبان الحديث، يستعيدان ما علق في ذكرتهما، عن متاعب نهار سئ، مر مرور اللئام، يخوضان في حديث ممل، عن ارتفاع الأسعار، شحة المواد الغذائية، وإخفائها من الأسواق، اوعن الحصة التموينية، التي لا تصمد لمدة اسبوعين، والتي هي سر بقاء الرئيس في منصبه، قابضا بيد حديدية على مقاليد الأمور.

لم يجد الرجل من يتحدث معه، بعد رحيل زوجته، قبل عام مضى، وهجرة ابنهما منذ عامين، قبل ان يشتد الحصار، يوما بعد يوم، لا يدري الى اين هاجر، فهو لم يتصل به هاتفيا، او يبعث حتى رسالة ليطمئن عليه..

لم يبق شيء. باع اثاث غرفة النوم، السرير العريض، وديلاب الملابس الكبير، الذي كان يغطي جدارا كاملا، والذي تعكس مراياه، ضوء مصباحي منضدتي السرير الجانبيتين، استعاض عن كل ذلك بسرير نوم عادي، حتى الكتب التي أحبها، ونظمها على رفوف مكتبته، لم يتبق منها سوى رواية العجوز والبحر، بطبعتها الأصلية الأولى، ابقاها تأسيا وإقتداء بسانتياغو، الذي تحدى البحر وقروشه الشرسة، تحد عجوز عنيد غير متكافئ.

أبقى جهاز التلفاز مهجورا، ومغطى بقطعة قماش سوداء، لسبب آخر، غير الحزن على زوجته، لم يفصح عنه، يسميه بؤرة الشؤم، يشيح نظره كلما وقع عليه، تذكرها فدمعت عيناه، وخنقته العبرات.

لم يكن معاشهما التقاعدي هي وزوجها، يصمد لمنتصف الشهر، فإضطر هو ان يكف عن التدخين، ولم تعد هي تشتري الملابس، التي تظهرها بالمظهر اللائق،

لتوفر ثمنها لأشياء ضرورية آخرى، ولم يتوقف هو عن التدخين لأنه مضر بالصحة، رغم تحذير ابنته المتواصل، وإنما تركه لكي يوفر ثمن السجائر، لشراء صحيفته، التي اعتاد ان يقرأها كل يوم، فكانت الوسيلة الوحيدة للتسلية اليومية، للإطلاع على الأخبار التي لا مفر منها، وان ادت الى الإمعان في تعكير المزاج، بعد ان اصاب الخرس جهاز التلفاز، وصار ابكما، فلو انه فكر في بيعه، فلن يجد من يشتريه، وان وجده، فمن هذا الغبي الذي يغامر بدفع ثمن جهاز مشؤوم، لا يذيع او يعرض سوى اخبار الحصار، وما يتعلق به من فرق التفتيش عن اسلحة الدمار الشامل، التي تجرأت اخيرا على دخول غرفة نوم الرئيس، من المجنون الذي يريد ان يسمع عن ارتفاع وفيات الأطفال، وغيرها، إلا إذا كان انسانا شاذا او ساديا، من المجنون، الذي يعيش المأساة، ويحب ان يتعذب بسماعها، اللهم إلا اولئك القساة الذين لم يخمش الحصار لهم وجه، حتى وان حدث سهوا. صرف نظره عن بيع التلفاز، رغم استغناءه عنه.

أحب الراديو، وخاصة الذي يعمل بالبطارية، يستطيع ان يدسه معه في الفراش، فربما يأتيه ببعض الأخبار المتفائلة عن قرب نهاية الحصار، او كما يردد هذه الأيام عن بصيص ضوء في آخر النفق، وإذا بخل عليه الراديو بأخبار سارة، فقد يسمعه شيئا من الموسيقى، تجلب النعاس لعينيه، صرف نظره عن بيعه، رغم استغنائه عنه.

أصبح الأب يعيش الوحدة والعزلة القاتلة، التي فرضتها عليه الظروف القاسية، فلم يجد من يتحدث اليه، فإبته التي تسكن بعيدا، لم تعد تزوره، إلا في المناسبات، تكتفي بين حين وآخر بالاتصال به هاتفيا، للسؤال عن صحته، هلو بابا كيف صحتك، هل تحتاج لشيء، وكان جوابه دوما، انا بخير، اهتمي بنفسك وبأولادك.

فكر في بيع الحلية الذهبية، هدية الخطوبة لإمراته، يعرضها على صائغ يقدر قيمتها، تخيل زوجته تقف امامه، تعاتبه، فهي التذكار الوحيد الباقي، صورتها المنقوشة بالميناء السوداء، هذه الحلية الذهبية الرائعة، التي اعجبت بها سائحة المانية، عندما رأتها تتدلى على صدرها، حينما كانا يزوران المتحف العراقي، وأحبت السائحة ان

تلمسها باصابعها، تذكر انه شرح لها عن مادة الميناء السوداء، كان يوما رائعا لن ينساه ابدا، تذكر انهما بعد ان ودعا السائحة الألمانية، تعشيا في مطعم راق، وقبل ان يعيدها الى بيتها، شاهدا فيلما اجنبيا، في سينما الخيام، كانت ليلة لا تنسى، قال يخاطب نفسه، كيف سولت لك التفكير في بيعها، الم نتفق ان نهديها لإبانتنا، لتحتفظ بها كذكرى، سمع زوجته الراحلة تعاتبه، ها انا رحلت، ولم تف بوعدك، فماذا تنتظر!

صوب نظرة لجهاز التلفاز، وخاطبه بإزدراء لن ابيعك ابدا، حتى لو اعطوني وزنك ذهبا، لن تتزحزح من مكانك سنتمترا واحدا، لأني أخشى على الناس، ان تكون سببا لإيذائهم، او لربما هلاك أحدهم، فعندما يظهر الرئيس على شاشتك، ويبصق اب ساخط على صورته، يستدرج الأطفال، يستجوبونهم هذه الأيام، ويحصلون منهم على اعتراف يدين آبائهم بجريمة أهانة الرئيس..

قرر ان يبيع الحلية الذهبية، خبأها في جيبه، وذهب صباحا لشارع النهر، عرضها على أكثر من محل للمجوهرات، بخسوا كلهم قيمتها، وقبل ان يعود لبيته، دخل لآخر محل، استقبله شاب مرحبا به، أهلا استاذي، كيف حالك؟

عرض الشاب عليه المساعدة، برهن الحلية لديه، واعطاه مدة زمنية كافية لفك الرهن، وبدون فائدة، المبلغ يعادل ثمن المثاقيل التي فيها، رغم ان النقود التي استلمها لا تعادل عشر قيمتها الفنية التي ادهشت السائحة الأجنبية، عاد لبيته مسرورا، ولكن يشوب سروره شيء من حزن سنتياغو، على سمكته التي سحبها للشاطئ هيكلا عظميا.

اشتهر الصائغ المندائي حسني، الذي كان يعيش في مدينة العمارة حتى أواخر الستينيات من القرن الماضي، بنقش الصور الشخصية على الذهب، بمادة الميناء السوداء، تعلق الصورة، التي تأخذ شكل بيضوي او اي شكل آخر، بحلقة صغيرة الى السلسال الذهبي، تلبسها المرأة كالقلادة، وشاعت إنذاك كهدية تقدم مع خاتم الخطوبة،

تعليق الناقد الأدبي الدكتور صالح الرزوق

إنها أجمل قصص صالح البياتي على وجهه الإطلاق. وفيها خبراته بالتكثيف
والتصوير والتحريك مع الحوار المعبر والدال أتمنى له إنتاج المزيد من هذه الكتابات الواقعية والمؤثرة

الحمقى

إجتمع زمرة من الحمقى لتشييع زعيمهم، خرجوا بموكب جنائزي، طافوا به الشوارع، حتى انتهوا أخيراً الى مكان منعزل خارج المدينة، هناك تحت شجرة كبيرة، انزلوا التابوت، وتحلقوا حوله يبكون، حتى هبط الظلام، فأشعلوا ناراً كبيرة، أضاءت المكان حولهم، قام أحدهم ترجل كلمة رثى فيها الراحل، لكن لحماقته اختلط عليه، فلم يستطع ان يميز بين أعماله الحسنة والسيئة، فكان يذم الأولى ويمدح الثانية، وقام آخر فنسب اليه أشياء لم يفعلها ابدا.

صاح أحدهم، كل ما قاله هذان الأحمقان هراء، كُفا عن هذه السخافات، ليقرأ علينا من بحوزته وصية المرحوم، لنبدأ بتنفيذها فورا، ولما علموا انه لم يترك وصية، تحدد طريقة التخلص من جثمانه، كما يقتضي العرف عندهم، ان يختار المتوفى في وصيته اما الحرق او الدفن، لذا احتاروا، وأسقط في أيديهم، إقترح بعضهم ان يدفن تحت الشجرة، واعترض آخرون، وأردوا ان يحرق، وينثر رماده حول جذعها المتين، فهي شجرة مقدسة عندهم، كل فريق أصر على رأيه، وثار جدل عنيف بينهم، كاد ان ينتهي باشتباك بالأيدي.

تساءلوا ماذا نفعل، قال واحدٌ منهم، لنعين منا زعيماً، نفوضه البت في الأمر الذي تنازعنا حوله، وافقوا على رأيه، فاختاروا اكبرهم سناً، وبعد تفكير عميق، تمخض عقل الزعيم الجديد عن رأي سديد، أمر ان تقطع الجثة نصفين، جزء يدفن، والجزء الآخر يحرق، وجدوه انسب الحلول، لتفادي الخلاف الذي نشب بينهم، وقبل ان يقوموا بتنفيذه ، اختلفوا مرة آخرى، حول أي من النصفين سيحرق، البعض قالوا الجزء الأعلى، وآخرون قالوا بل يجب ان يحرق الجزء الأسفل، انقسموا الى فريقين، كل فريق يصر على رأيه ولا يحيد عنه، يبرره ويسنده بالحجج القوية، فالذين أتفقواعلى حرق الجزء الأعلى، قالوا ان في هذا الجزء، يوجد الرأس وفيه العقل، وبدونه يصبح الإنسان إما أحمقاً او مجنوناً، وهو

بذلك اشرف أجزاء الجسم وسيدها، والقائد الذي تطيعه أعضاء الجسم كلها بلا منازع ، ولأن النار مقدسة لدينا، لذا لا نريد تدنيسها بقذارة الجزء الأسفل، وأثبت الفريق الثاني حجته على نفس المبدأ، ان النار ستطهر الجزء الأسفل وتنقيه من القذارة التي فيه، ولما كان الرأس بطبيعته نظيفا أصلا؛ فلا يحتاج إذاً للحرق.

لم يتوصلوا لحل المشكلة، لذا اتفقوا على ان يتركوا الامر الى الغد، علهم يتوصلون لحل يرضي الجميع، شربوا ورقصوا على قرع الطبل، حتى ثملوا، فأطاحت الخمرة بالقليل من العقل الذي في رؤوسهم، وقف واحد من الفريق الأول، وهو يعتقد انهم اتفقوا على رأي واحد، فقال لننفذ ما أتفقنا عليه، قبل ان تنطفئ النار وتهاجمنا الذئاب فتخطف الجثة، أمسك بعضهم بالرأس وحاولوا قطعه مع الصدر، وتشبث الآخرون بالرجلين يسحبونهما نحوهم ، كل جماعة تجره من طرف، كأنهم يتبارون في لعبة جر الحبل، حتى خارت قواهم، وسقطوا على الأرض، أثناء ذلك تصاعد الدخان فملأ المكان، وتطايرت شرارات الى أغصان الشجرة ، أفزعهم ان تمس النار شجرتهم المقدسة، وخافوا اذا احترقت، فستحترق الغابة، ولن ينجو أحد منهم، تركوا الميت مسجى على الأرض، ليستنقذوا الشجرة التي امتدت اليها السنة النار، في تلك اللحظة قبيل الفجر، افاق الميت من غيبوبته، وراح يكيل لهم الشتائم ، ويركل النائمين منهم، يصرخ أيها الحمقى.. اللعنة عليكم، كدتم تحرقوني حياً. عم الهياج، ولوا هاربين وهو يلاحقهم باللعنات ويرميهم بأحجار الطريق، بينما كانت الشجرة تحترق، وتضئ كقنديل في عتمة آخر الليل.

المحاكمة

نودي على المتهم ك، تفاجأ الجميع برجلين بملابس سوداء، يجران جثة عارية، أوثقوها لعمود داخل قاعة المحكمة، سعل بقوة لتنظيف حنجرته من التراب؛ الذي منع صوته من الخروج للهواء، أحتج على تجريده من كفنه، وكشف عورته علنا أمام الحاضرين، صرخ:

- اليس عملاً معيبا كهذا، فيه اهانة كبيرة لإنسانيتي!

التفت الى السيدات الجالسات في قاعة المحكمة، وقال:

- ألا يخدش ظهوري عارياً أمامكن الحياء!

لم يأبه أحدٌ لاحتجاجه، لأن صوته بالكاد هز طبلة اذن واحدة، وكان كطنين ذبابة خطفت عابرة.

بدأ المدعي العام بتلاوة التهم الموجهة للمتهم ك، طالب بعقوبة قاسية.

توجهت أنظار الحاضرين للمتهم ك، مطالبة بإنزال أقسى العقوبات به.

التفت إليهم المتهم ك، قال: أنتم مثلي ضحايا خدعة ما يسمى بالعدالة المعصوبة العينين، واليوم بوجودكم نزعت العصابة عن عينيها، واتضح للجميع أنها عمياء؛ حقيقة وليس مجازا، سنلتقي جميعا في يوم آخر، امام حاكم عادل... تذكروا ذلك.

عاد يواجه القاضي، معترضا على شرعية المحكمة؛ لأنها لم تعين محاميا للدفاع عنه، فلو كان حاضرا لرد تهمة الدافع من وراء الجريمة، ولأثبت أن اركان الجريمة المدعاة ضده ناقصة، وذلك لغياب ركنين اساسين آخرين، وهما السبب وتوفر الفرصة، ولما سأل المدعي العام المتهم ك: بماذا تفسر تواجدك في شقة الرجل الذي قتلته؟ أجاب:

- دعاني لزيارته، فجئته مساء ذاك اليوم المشؤوم، جلسنا نتحدث في غرفة

الضيوف، إبتدرته معتذرا عن الخلاف الذي شجر بيننا، سألني: أنحن برأيك أصدقاء! فقلت فورا وبحماس: طبعا، وصداقتا قديمة. فتساءل: ألا يحتمل أن تنقلب فجأة الى عداوة! في تلك اللحظة التي سمعته فيها، شعرت بعطش شديد، فتناولت كأس الماء الذي امامي، ودون أن أقربه لفمي، اسرعت لأعيده لمكانه، غطيت بجمع أصابع كفي اليمنى، إبتسامة ساخرة كادت تفضح إشمئزازي من كلامه، قلت جائز في حالة واحدة، عندما تكون الصداقة زائفة، ونفس الشيء ينطبق على الجسد الصحيح، عندما تهاجمه الجراثيم القاتلة، ويعجز جهازه المناعي عن الدفاع، عندئذ يحصل المرض وينتهي بالموت. فقام مهتاجا، وإتهمني بأنني خنته، بإفشاء اسمه للسلطات الأمنية، علما بأنه لم يشارك في أي مظاهرة، بينما واضبت انا في نهاية كل اسبوع، بالمشاركة بالمظاهرات الاحتجاجية الصاخبة، التي عمت ارجاء البلاد التي نقيم فيها، وأنني قد تعرضت للإعتقال والتهديد بالترحيل، لكوني أحمل إقامة غير دائميه، في هذه الدولة الغربية، التي التجأت اليها، بينما هو قد إكتسب جنسية البلد وأصبح مواطناً، شهر مسدسه، فقمت لتهدئته. قال: انت حكمت على نفسك بالموت، وأطلق علي النار.

أشار ك الى مواضع الجراح الأربعة في جسده، لرصاصتين إستقرتا في الصدر بجوار القلب، وإثنتين كل واحدة منهما هشمت فخذا، أراد ان يطلق النار على الرأس فأخطأ، ربما أهتزت قبضته ونزلت للأسفل.

قاطعه المدعي العام: لكن التقرير الطبي أكد أن سبب الوفاة كانت مقذوفات نارية أطلقها البوليس في الهواء، لتفريق اعمال الشغب، ربما اصابتك بمقتل، وليس كما تدعي. رد ك، وهذه ربما كذبة آخرى، قطعا أنفي ذلك، المظاهرات كانت سلمية كما شاهدها العالم من خلال شاشات التلفاز، فكبف تحولت الى أعمال شغب! هذه كذبة أفتراها علينا البوليس، صديقي أتهمني بالخيانة، وأنتم تتهموني زورا بأني مشاغب..

بعد أن أنهى ك كلامه، قال كنت عطشانا جدا، حين سقطت صريعا، أتوسل اليك سيدي القاضي، أن تطلب لي كأس ماء، اريد أن اشرب، اشعر بعطش

شديد...

لم يُستَجبْ لطلبه، أحنى راسه يائسا، ينتظر قرار المحكمة، فسقطت جمجمته بين قدميه.

أعلن القاضي رفع الجلسة للاستراحة، وبعد فترة وجيزة استؤنفت الجلسة، وصدر الحكم بسحب إقامة المتهم ك المؤقتة، وحجزه في مركز الأبعاد حتى موعد طرده من البلاد.

كان ك الحي بالروح المتأججة في جسده، قد أطفأ تلك اللية جهاز التلفاز، بعد ان سمع ورأى آخر نشرة أخبار منتصف الليل عن الفظاعات المرتكبة؛ في الأرض المنكوبة التي ينتمي اليها، أطفأ النور في غرفة الجلوس، وتلمس طريقه لغرفة النوم؛ بضوء هاتفه المحمول، استلقى على فراشه، تراقصت أمام عينيه، صور ضوئية بالوان حمراء وصفراء، وارتعشت شرارت متطايرة في الفراغ، رآى في الظلام أشباحا بشرية، تهرب في كل إتجاه، الى لا مكان آمن تلجا اليه، وعمارات تخر الى الأرض؛ كأن كفا جبارة تسحقها، فتختفي الطبقة الارضية؛ تليها التي فوقها، الى ان تصبح أثرا بعد عين..

غفا ونام مقهورا، كان منسحقا الى درجة اليأس، وعندما صحا صباحا، تحسس جسده فحمد الله انه لا يزال حيا، لكنه لم يتعجب مطلقا، من الكابوس الذي رآه في المنام، وقال في نفسه، لا عجب ان يحدث هذا في الواقع لي او لأحد غيري.

ليل وصهيل

كان يجلس على كرسيه العالي، كما لو انه ملك متربع على عرشه، لا مجرد حوذي، كل رعيته حصانان عجوزان مثله، وعربانه ربل* قديمة متهالكة، وسوط أطول من المعتاد، لا يفارق يمينه، استعمله قديما في تأديب الأطفال الأشقياء، الذين كانوا يتعلقون بمؤخرة العربة، فكان يفرقعه في الهواء لتخويفهم، اما اذا ركبهم العناد واستمروا ملتصقين كالقراد، فأنه يلسع بِهِ ظهورهم، ولكن السوط لم يمس أبدا ظهري الحصانين، لأن علاقته بهما كانت من نوع خاص، علاقة أبوية.

فبعد ان خالفه الحظ بأنجاب طفل طوال حياته الزوجية، التي انتهت بوفاة الزوجة في نهاية حرب الثمان سنوات*، تمرضت وماتت المسكينة كمدا على ابن اخيها الشاب، الذي قضى قتيلا في السنة الثانية من الحرب، كان بالنسبة لها الأبن الذي تمنته لنفسها ولزوجها.

أحب العجوز الأطفال بعد رحيل زوجته، فسمح لهم بالتعلق بالعربة بحرية تامة.

ورغم تقدمه في العمر امتاز ببنية قوية وقامة منتصبة، وبخوذة يعتمرها في الصيف الجنوبي اللاهب، بلون جلد الجمل، تلبس قديماً بالمناسبات اثناء العرض العسكري، ايّام العهد الملكي، تتصل بمؤخرتها قطعة قماش من نفس اللون، تتدلى على كتفيه وتغطي رقبته المتغضنة، وتحمي بشرته البيضاء من نار الشمس الحارقة، اما باقي لباسه فقميص عسكري كاكي، وبنطلون عريض شبيه بسراويل الكرد. هذه التشكيلة الغريبة، اثارت سخرية المتطفلين وتعليقاتهم اللاذعة.

فصل الشتاء عموما قليل المطر في الجنوب، ولكن احيانا وعلى حين غرة تتلبد الغيوم السوداء في السماء، وتهطل امطار غزيرة، فيرتدي العجوز اثناء عمله معطفا مطريا خردلي، بهت لونه من كثرة الاستعمال، تتصل بياقته قلنسوة من النايلون تحمي رأسه الأصلع.

في السهل الجنوبي، الذي حمل عدة اسماء مع تعاقب الحقب التاريخية (الشائع منها قديما: سهل شنعار، وأرض السواد*)

كان الناس ولا يزالون يتباهون بأنسابهم العربية العريقة، يعدون القبيلة مدعاة للفخر والامان في آن واحد، ولكن العجوز لم يكن ينتسب او يدعي الانتساب لأي قبيلة معروفة، فهو كما يسمونه غصن مقطوع من شجرة بعيدة، ذلك في العرف القبلي شيء غريب، ولكن غير مستهجن او مذموم، ولَم يكن العجوز مع ذلك يشعر بالإحراج، او يعتبر نفسه نبت طفيلي غريب، وعندما يتعمد واحد من المتطفلين ان يسأله عن اصله، بقصد الإستخفاف والاستهانة به، يرد عليه بثقة : "انا سومري، سليل أولئك الأوائل الذين انتشروا في هذا السهل الخصب، كما انتشرت بكثرة في اهواره نباتات القصب والبردي " وإذا كان هناك ثمة أشياء تستحق الفخر والتباهي، فهما حبه للأطفال ولحصانيه، فهؤلاء عنده بمرتبة عليا، لا يسموعليها سوى حبه الى الله ولأوليائه الصالحين، الذين يتشرف بزيارتهم في المواسم الدينية مع المرحومة زوجته.

كان العجوز اثناء عمله رجلا دؤوبا صموتا، لا يعتدي على أحد، ولا يغضب إلا نادرا، يلجم غضبه المنفلت أحياناً، بحبال الصبر والاستعاذة بالله الرحيم من الشيطان الرجيم.

تقع محطة وقوف عربات الخيل على كورنيش الدجلة قرب المسناة عند ضفة النهر، ومقابل السوق الكبير، الأثر الفريد الباقي بالمدينة من تراث العصملي*، وهذا المكان الذي احبه العجوز أشبه بمملكة صغيرة، أمضى فيه اجمل ايامه، وهو يتطلع من فوق كرسيه العالي الى النشاط اليومي الدائب لحركة الناس، ينتظر المتسوقين الخارجين من السوق بما تبضعوا، فيحملهم الى بيوتهم المنتشرة في ازقة المدينة القديمة، على الجانب الأيسر من النهر، قبل توسعها وامتدادها على الجانب الأيمن، بعد تشييد الجسر الحديدي الجديد في أواخر العهد الملكي، وهناك أيضا زبائنه الخاصين من التجار الذين يفضلون عربته، على العودة بسيارة اجرة الى بيوتهم في حي السبع قصور الجميل، ينفحونه درهمين ملكيين.

في المحطة آنذاك توجد ثمة ست عربات، وعربته السابعة، أجملهن على الإطلاق، وهو أيضا لا يزال شابا طويلا وسيما، وجواديه التوأمين الأدهمين فتيين، وعربته جديدة تخطف الأنظار عندما تسير في الشارع، ولجواديه نفس الأسم:" الجميل"، يميز بينهما حسب موقعهما امام العربة: الأيمن والأيسر.

راحت عليك تلك الأيام الخوالي أيها العجوز، وصار وقوفك هنا أشبه بديكور، لتزيين المكان وإضفاء مسحة القدم عليه، خبت جاذبية عربات الخيل مع مرور الزمن، وحلت محلها وسائط النقل الحديثة، هكذا يتحدث مع نفسه وهو ينظر بحسرة للمشهد الذي يتكرر امامه كل يوم.

كان يريد ان يسترسل في الحوار مع نفسه، بدلا من الانشغال بمراقبة الناس المتعالية اصواتهم، المتدافعين بالأيدي والمناكب، المنحشرين عند باب الصعود الضيق للحافلة، رأى النساء بأحضان الرجال، ندت عنه صرخة كتمها، اللعنة.. تفو عليكم..

فمنذ العام الماضي بدأت الحافلات الجديدة خدمتها بخط واحد، يقطع المدينة من شمالها الى أقصى جنوبها، مريحة ومفضلة أكثر للذين هم ليسوا على عجلة، وغير مضطرين ليستقلوا سيارة اجرة، وايضاً لبعض النسوة اللاتي يذهبن مع أطفالهن لحديقة النساء في أماسي الصيف الدافئة، التي تقع في نهاية شارع الدجلة في الطرف الجنوبي للمدينة، وكانت المحطة المركزية للحافلات على مبعدة خطوات من مكان العجوز، وهي المكان المفضل لتجمع المراهقين لاستعراض أنفسهم امام البنات.

راقب العجوز المشهد من علياءه، رأه يتكرر كل يوم: متبضعون خارجون من السوق الكبير، حافلة الركاب الواقفة، يزدحم الناس أمامها للصعود، ونزق الشبان المتأنقين الهائمين بلا هدف، والريفيون الذين يأمون المدينة لشراء احتياجاتهم الضرورية.

هناك القليل من الناس الذين ما زالوا يتذكرونه سجّاناً ايّام العهد الملكي، وعندما ترك عمله في السجن وأصبح حوذياً، أسدل الستار على ذلك الماضي ولَم يحب ان

يتذكره، ندم على ضياع تلك السنتين التي خدم فيهما حارساً، يقف كتمثال حجري وراء مدخل لا يتسع سوى لشخص واحد، في إطار بوابة حديدية سوداء، كان سجانا وسجينا في آن واحد، يعتمر سدارة في مقدمتها مفتاحين متقاطعين يرمزان للسجن، علمه السجن ان الانسان لا يكون حرا لمجرد ان يحيا طليقا خارج أسواره، وعندما ترك عمله فيه قطع كل علاقة تذكره به.

أصبحت حياته ملتصقة بمهنته الجديدة، استحوذت عليه لدرجة الهوس، فغدت العربة والجوادين كل شيء في حياته، وما عداهم، فإما شيء فائض عن الحاجة او شيء لا يعنيه مطلقا.

كان اول شيء يعمله عندما يعود لبيته، فك وتحرير الجوادين من العربة، والأعتناء بنظافتهما، وفحص حوافرهما، وتقديم الطعام والماء لهما، والمسح بيده بحنان على رأسيهما وعرفيهما اثناء الأكل، يكلمهما فيفهمان ما يقول لهما، تطربه الحمحمة التي يسمعها فيفرح، كان الحوش الكبير مكان المبيت المريح.

ليس في قدرة أي قوة في العالم ان تصادر فرح الإنسان، عندما يتحرر من قيود المادة ويدخل في دائرة الحياة الأوسع، ويقترب اكثر من نبضها الحقيقي، وهذا الإحساس لا يأتي عبثا او بالصدفة، إنما هو يتفجر تلقائيا كينبوع ماء، وذلك ما حدث للعجوز، فلم يعد يحس بأدنى فارق بينه وبين هذين الحيوانين الأبكمين، فهما يشاركانه الهواء والماء والضوء، ويشعر بالزهو عندما يراهما يركضان امامه بنسق منتظم، حتى يتخيل نفسه يجري معهما، وأن الاجساد المخلوقات الثلاثة، انسان وحيوانين قد اتحدت بقوة ، وان الدماء الحارة تدفقت في عروق جسد واحد.

ان تماهيه هذا جعله في الصيف يفتح منخريه ليتنفس الهواء، بنفس الطريقة التي يتنفسان بها، وان البخار الذي ينفثانه اثناء الجري في الشتاء البارد، يحس به يخرج من رئتيه، حتى انه يشعر في احيان كثيرة ان هذا الإتحاد قد امتد ليشمل العربة أيضا، في درجة من الذوبان لا يفهمها سوى المتصوفة في أوج نسيانهم لذواتهم.

احس بروحه اثناء عمله سجّاناً، محبوسة بين جدران السجن كعصفور في قفص، ويشعر بنفس الإحساس حينما يلتقي بسجّان آخر يعمل معه في نفس السجن، ويحدثه عن مشاهد الإعدام، وعن ضعف الانسان وضآلته امام الموت، راح يتجنب الجلاد عندما يصادفه في اروقة السجن، ويسحب يده عندما يصافحه، رغم انه يعرف ان الرجل يؤدي عمله المكلف به بحكم القانون، وينفذ حكما بمجرمٍ قاتل، وأنه لا يعتدي على حياة إنسان بريئ، السجن حفر في اعماق روحه جروحاً غائرة، لكن الحياة علمته ان الحب وحده كفيل بشفاء تلك الجروح، وعندما رحلت زوجته عن الحياة، بكى عليها وحزن حزنا شديدا، وشعر بمرارة الوحدة، ولكنه تعلم ان يعيش مع وحدته، في ذلك الوقت اشترى المهرين الفتيين والعربة، واعتنى بهما حتى اشتد قوامهما، فشعر انه لم يعد وحيداً في هذا العالم.

يقصد العجوز شاطئ النهر في ايّام الصيف الحارة، ينزل للماء يستحم ويتبرد مع المهرين، ويساعد الاطفال على ركوب ظهريهما، وعندما يهزان رأسيهما ويزفران يتناثر الماءً من عرفيهما على الأطفال، فيضجون بالضحك فرحين، أحب تلك الساعة في اللعب مع الأطفال لأنها اسعد الساعات، وأنها تنسيه تعب أسبوع من العمل.

اما النوم في باحة البيت تحت سماء صيفية فمتعة عظيمة، كأن بين وميض نجومها وبينه لغة مشتركة وحوار صامت، يشاركهم قمر مرسوم كطبق القيمر* البلدي ينير ضوءه الزوايا المعتمة، شيء مشبع بالسحر مكتنف بالأسرار، يزيده سحرا احساسه بوجود المهرين الجميلين قريبين منه فيغشى النعاس عينيه ويخلد لنوم عميق، يحلم بجياد تجري رشيقة لا يحدها المدى، حرة طليقة في سهول خضراء، يملأ صهيلها الأفق، وأحيانا يرى زوجته في المنام مقيمة بالجنة محاطة بالأطفال كأنهم طيور ترفرف فوق رأسها. فينهض في الليل ليروي ضمأه بطاسة ماء بارد من الحبانة القريبة من رأسه، وعندما يعود لفراشه يمسح عينيه المخضلتان بالدموع، التي يحتار في تفسيرها أهي دموع فرح أم حزن!

فكر بالزواج من اجل الأطفال، ولكنه استغنى عنه وتعلق بالجوادين فعوضاه عن

الحرمان من الذرية، واراد الحج لبيت الله ولكنه وهب نفقاته لأرملة فقيرة كانت احوج للمال، وقال في نفسه سيكتب لي الله تبارك اسمه وتعالى حجا مبرورا، وانا في بيتي دون تعب ومشقة، ولَم يندم البتة على ذلك.

اعتاد تزيين العربة في اول ايّام العيد، بالبالونات الملونة وبسعفتي نخيل يثبتهما، من اجل إسعاد الأطفال، وبأكياس الحلوى لإدخال الفرح الى قلوبهم الصغيرة، وأخيرا وليس آخرا إصعادهم للعربة لرحلة نزهة في شوارع المدينة، فيعلو تصفيقهم وغناءهم..

"عمو عبد الله العربنجي* بيده القمجي يضحك ويحچي" فيضحك فعلا حتى تملأُ عينيه دموع الفرح.. وسط ترحيب عام من الناس الذين يرفعون أيديهم بالتحية له.

عند حلول الشتاء يقل العمل بالمقارنة مع الصيف، لذا يعود احيانا في وقت مبكّر للبيت، يستمتع بدفء الشمس، يجلس في الباحة، يتأمل احوال الدنيا، راض وقانع، لا ينغص حياته شيء سوى احتمال موت احد الجميلين، ولكن قلقه على نفسه من الموت قبلهما، كان اقسى وأمر، يرتعب من مجرد التفكير بترك احدهما او كليهما لمصير مجهول، يتخيل إنهما سيستغلان وتساءُ معاماتهما، ويعيشان على المزابل، ويتعرضان للضرب بقسوة، وستملآ القروح البشعة جسديهما، والذباب سيتجمع عليها، وفِي النهاية سيموتان ميتة تعيسة، كان ذلك يرعبه، وعندما مرض الجميل الأيمن ثم ما لبث ان مات بعد ايّام قليلة، جاءه أصدقاءه في المهنة للمواساة والتخفيف عن حزنه، أفضى اليهم انه سيذهب بإتجاه الشرق بصحبة جواده الآخر الجميل الأيسر، حيث هناك البراري الشاسعة الممتدة حتى الحدود، ينتقلان من مكان لآخر، حذروه من خطورة ما يفكر به، فالمنطقة خطرة جدا ومزروعة بالألغام، من مخلفات الحرب مع ايران، ضحك العجوز في سره من جهلهم، لأنهم لم يعرفوه من قبل شرطيا في مخفر الطيب*الحدودي، وذلك قبل ان ينقل للعمل في سجن مدينة العمارة* المركزي، بسط كفه امامه وطمأنهم، انه يعرف المنطقة التي سيذهب اليها، كرؤيته ومعرفته لخطوط راحته هذه..

وعندما حلّ الربيع ذهب هناك برفقة الجميل الأيسر، مسترشدا بذاكرته التي لم تخونه، والتي لا تزال تحتفظ بمنظر ارض غطتها الأعشاب والأزهار البرية، وترتع فيها الغزلان وطيور الحجل، وتتلألأ من بعيد بوهج الغدران تحت أشعة الشمس، بقي فدروسه المفقود حيّا في ذاكرته، يحمل اروع الصور غضة ونضرة، ذات سحر أخاذ وبهاء أسطوري، قبل ان تعبث به يد الحرب دمارا وتخريبا، وتحيله مقبرة موحشة، مليئة بحطام الأسلحة المدمرة، تنعب فيها غربان الموت...

قاد العجوز حصانه الجميل الأيسر، واتجه صوب الحدود، فرأي الجبال من بعيد كأنها دخان منعقد في السماء، توغل بعيدا غير مكترث بالأخطار، يتحرك وراء خياله الذي يسابقه، ويطير به بلهفة وشوق العاشق للقاء محبوبته، تلك الصورة التي لم تستطع سنوات الحرب الثمانية ان تمحيها من ذاكرته، بكل ما في تلك الحرب من شراسة ودمار..

الناس الذين رأوه، أما ريفيون، او عابرو سبيل، تناقلوا اخبارا عنه، اختلط فيها الخيال بالواقع، قالوا إنهم شاهدوه على حصان ادهم جائلا بين القرى والحقول، متوغلا في السهوب الجرداء، يعتاش على ما تجود به الارض من أعشاب وأثمار برية، او على العسل الطبيعي، وقالوا انهم رأوه يبحث عن الفقع* في الربيع، يستخرجه من التربة ويقايضه بأشياء أخرى، مع سكان القرى التي يمر بها، وآخرون زَعموا انهم سمعوا صوت صهيل العجوز يتجاوب في الليل مع صهيل جواده، ولكن لم يذكر اَي مصدر حكومي أي خبر عن انفجار حدث نتيجة اجتياز خاطئ في منطقة عسكرية محظورة، لذا على الأرجح انه وجواده لا يزالان احياء. ومنذ ذلك الوقت انقطعت اخباره ولَم يره أحد او يُسمع عنه شيئا...

- عربانه الربل (بالعامية العراقية): اَي الحنطور.
- حرب الثمان سنوات: الحرب العراقية – الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)
- سهل شنعار، ارض السواد: اسمان للسهل الرسوبي الغريني بين نهري دجلة والفرات.
- العصملي: الدولة العثمانية التي حكمت العراق.
- القيمر (بالعامية العراقية): القشطة المستخرجة من حليب الجاموسة.
- العربنجي (بالعامية العراقية): الحوذي.
- القمچي (بالعامية العراقية): السوط.

• مخفر الطيب: مخفر حدودي للشرطة على الحوز مع ايران، جرت في المنطقة معارك شرسة اثناء الحرب.
• مدينة العمارة: مركز محافظة ميسان، تقع في جنوب العراق، وتبعد عن بغداد ٣٦٥ كم.
• الفقع: او الكمأة نبات درني ينمو في الصحراء بعد سقوط الأمطار
• قرأت هذه المعلومة عن المخاطر التي تواجه الفرس التي تحمل جنينين في رحمها:" فإن الفرس التي سوف تلد المهرين دون أية مشكلة، واحدا تلو الآخر ولكن هناك احتمال أن يشتبك المهران أثناء خروجهما من خلال قناة الولادة في نفس الوقت، الأمر الذي يتسبب في عسر ولادة رهيب أو ولادة صعبة".

شمس وشظايا

لهبت رأسه شمس تموز، انتبه، فوجد نفسه مقرفصاً، حاسرا وحافيا، وسط حقل كبير، مزروع بشظايا قنان زجاجية، تبرق ألسنتها المرهفة كالمدي والأنياب، تحت أشعة شمس الظهيرة، شظايا على امتداد البصر، لا شيء سواها ينبئ بنسمة حياة.

لا شيء سوى انعكاسات ضوئية حادة، ذات ألوان مختلفة، احاطت به كحلقة محكمة، كانت الشمس في السمت، والظل لم يستطل، والاتجاهات حتى تلك اللحظة غير محددة، حاور نفسه بهدوء، فسخرت منه الشمس، واستهزأت بأفكاره، لأنه فكر بالانتظار حتى الزوال، الذي سيأتي بحل لمعاناته. فقتلت الشمس امله، بأن ستصب عليه شواظا من نار، تحرقه فلا يبقى منه شيء، قبل ان تجنح للأفول. رد عليها غاضباً.

- لن ترهبيني، سأطفئ نارك بأقرب نهر يصادفني. ضحكت منه

- إذا بقي منك شيء تطفئه.

كان يفكر بفتح طريق وسط الشظايا، خلع ملابسه العسكرية وفرشها تحت ركبتيه، شق القميص نصفين، ولف كل قطعة على ذراع، وشرع بإزاحة الشظايا التي أمامه، ورماها على جانبيه، وهكذا كان كل متر ينظفه يصبح ممشا آمنا، تذكر كيف تدرب اول مرة على ركوب الدراجة الهوائية، فكانت ركبتيه تنسلخ بعد كل سقطة، صرخ بوجه الشمس:

- سأصلي لك ايتها الشمس المتكبرة، ان انتصرت عليّ.

حدد الاتجاه، واخذ يزحف ببطء ولكن بثبات، تمزق البنطال العسكري، فتجرحت ركبتيه وقدميه، وتشققت قطعتي القميص، وغطت الجروح كفيه ورسغيه، ولكنه واصل الزحف بإصرار وعناد، كانت عيناه تؤلمانه وتدمعان من

شدة الوهج، كان في ذروة انهماكه يريد ان يتوقف، يفكر بهدوء ويسأل نفسه:

- ما لذي افعله، مجنون انا.. او أني لست بكامل وعيي ولا اعلم! يستحيل ان ما أراه حقيقيا، لابد أني احلم، او ربما انا في عالم آخر. سخرت منه الشمس:

- بدأت تهذي أيها المسكين الضعيف، هل اوجعتك ضرباتي؟ مهلا سأطيح بك بالضربة القاضية عندما يحين وقتها...هه هه.

كانت الانعكاسات الضوئية قد أخذت بالاضمحلال، عندما شعر بالتعب ينهك جسده، وآلام قوية توجع ظهره ورجليه، ولكنه واصل الزحف، غير مكترث بآلامه المبرحة، أفلت الشمس، ولَم يقطع سوى مسافة قليلة، جاء الليل بنسمات باردة، وكان القمر بازغا، يعكس ضوءه الناعم على الشظايا، فيشعل فيها مهرجانا من الألوان الدافئة.

- هذه مملكتك أيها الجندي، وهي أجمل ممالك الدنيا، لا ينازعك عليها أحد بحرب او بدونها.

كانت النجوم تهمس له بهذه الكلمات، تعيدها عليه حتى نام، ولما أشرقت الشمس في اليَوْمَ الثاني، خلع ما تبقى من مزق بدلته العسكرية، وشق طريقه بعناد، كان هذا الصباح الصيفي لا يختلف كثيرا عن صباحات مدينته الجنوبية، احس بنسمات باردة تهب من الغرب، فيها شيء من رطوبة النهر، وبدت له من بعيد، بعض شجيرات الصفصاف، حجبت عنه رؤية النهر، أراد ان يستعيد تجربة اوتنابشتم السومري، عندما أرسل حمامة في محاولة اخيرة للنزول لليابسة، فعادت له بغصن رطيب، فكر الجندي، ماذا يرسل، فقال:- لو كانت معي جزمتي العسكرية، لقذفتها بهذا الاتجاه، فإن سقطت في الماء وأحدثت صوتا، قدرت المسافة الباقية.

التقط قعر قنينة زجاجية، وقف منتصبا، وقذفها بكل ما تبقى من قوته، طارت الشظية في الهواء، وخطف بريقها تحت الشمس، عينيه لثوان، سقطت ولَم يسمع لها صوت انكسار، او تناثرت الى شظايا صغيرة، هتف بأعلى صوته، اليابسة..

اليابسة، تخيل انه واقف على قيدوم سفينة شراعية، تبحر نحو شاطئ قريب، ننسى ما أمامه من شظايا حادة، وركض كالمجنون حتى وصل الى الشجيرات، استراح على الجرف العالي، نظر لقدميه المدماتين، والى النهر الذي التمعت مرآته امام عينيه الكليلتين، كانت المويجات تتلألأ تحت شمس الظهيرة، بانعكاسات أخاذة، كأنها شموس صغيرة لا تحصى، مترجرجة في حركتها الموجية الرائعة، التفت وراءه الى الحقل الزجاجي، ونظر اليه نظرة مسالمة، ثم رفع رأسه للشمس، التقط شظية اخرى، هزّ قبضته، صرخ كالمجنون.

- لن اطلب منك سن غزال، سأفقأُ عينك ايتها المغرورة.

وقذفها بقوة بإتجاه الشمس.

- ها انا قد انتصرت عليك اخيراً.

رمى جسده في النهر، طن في أذنيه صوت وش وش.

زال عنه الإعياء لمجرد انغماسه، غسل الماء جراحه، عب منه فأرتوى، راح يحرك ساقيه ويديه ويطبطب بقدميه، لاهيا كصبي يسبح لأول مرة في النهر، تذكر ان شيخا جليلا قال له يوما" ان رحمة الله تسع حتى المذنبين الخارجين من الجحيم، فبعد ان يعفو عنهم، يرمون الى نهر بارد من حليب في الجنة، يعيد لهم نضارة جلودهم التي تفحمت في النار"

كان جذلا منتشيا، لدرجة انه لم يسمع الرجل الذي كان يناديه من الشاطئ، ويأمره بالخروج، أراد ان يقول للرجل، الواقف عند جرف النهر،(الذي بدا انه كان متوجسا منه)، انه عار، لكن صراخ الرجل أربكه، فخرج، وقف أمامه على مسافة، نظر الرجل الى القرص المعدني المتدلي على صدره، كان يقطر ماءً، اقترب منه، مد يده وانتزعه، قرأ الحروف المحفورة فيه، ثم أعاد السلسال حول رقبته، ودون ان يقول شيئاً، ركض وعاد يحمل دشداشة بيضاء، رماها له، وحين لبسها هبت ريح قوية من الشرق، امتلأ ثوبه العريض المفتوح عند قدميه، بالهواء، ارتفع كبالون الى الأعلى، طار فوق ضفتي النهر العظيم، كان سرب من النوارس

يحلق قريبا، صاخبا في خط أفقي نحو البحر، شاهد صيادي اسماك بملابس عسكرية، يرمون شباكهم في النهر العريض، ويدخنون السجائر الرخيصة، اثناء انتظار امتلاء شباكهم باسماك الصبور، قال مع نفسه، هؤلاء رفاقي، هجروا الجبهة، لا هربا من الحرب ليختبئوا في بيوتهم، ولكنهم اعتادوا كل سنة، في هذا الموسم، ان يصطادوا سمك الصبور، لوح لهم، ثم حلق فوق غابة نخيل، رآها محترقة، كأن جذوعها أعمدة سوداء، في خرائب معبد روماني، سمع أنينا وهمسا لها، لا يفهمه الا النهر والنوارس التي تحلق بعيدا نحو البحر.

هبط للضفة الاخرى، فرأى الجنود الصيادين يسحبون شباكا مليئة بأسماك الصبور، تلمع حراشفها الفضية تحت الشمس.

كانت دورية عسكرية تجوب المنطقة، ألقت القبض عليه، حالما حط على الارض، وحينما حشروه في شاحنة عسكرية، مع امثاله من الفارين من جحيم الحرب، آذنت الشمس على المغيب، شعر بالراحة عند الاحتكاك برفاق السلاح، فقال في نفسه:

- نحن رفاق السلاح، اخوة في كل العالم، وعندما تندلع الحروب في كل مكان، نمتاز برائحة خاصة، ولهذا يعثرون علينا ويسوقوننا للمسلخ.

سأله الرجل الذي بجانبه، إن كانت لديه سجائر، نظر اليه بحزن واعتذر.

كانت الشاحنة تؤرجحهم وتهدهدهم، فسقطوا من شدة التعب في احضان النوم، ولَم ينتبهوا حتى توقف هدير محركها، أنزلوهم من الشاحنة، بدأ الليل في تلك اللحظة يمارس لعبته، في اخفاء قبح الأشياء، أوقفوهم في صف واحد امام فرقة الإعدام، شعروا ان هواء النهر المنعش راح يتسلل الى ظهورهم، يربت على أكتافهم، يلطف حرارة اجسادهم، ساد صمت لا يعكره سوى خطوات الضابط الاستعراضية، قيدوا أيديهم للخلف، وغرزوا السجائر في افواههم، اشعلوها، تذكر أمه، رآها واقفة امام التنور الملتهب بالنار، وحبيبته بنفنوف وردي مطرز بأزهار بيض، ترتديه عادة، كلما يأتي في اجازة من الجبهة، تذكر أشياء كثيرة، كان قد نسيها سابقا، ولكن موت الأب المبكر، كان آخر شيء تذكره، دمعت عيناه،

عندما اختنق بدخان السيجارة، سعل احد رفاقه عاليا، فتساءل، اخائف هو من الموت، أم ذاك من اثر الدخان وهواء الليل البارد، همس لرفيقه:

- تأمل كم هي هادئة هذه الليلة.

صرخ الضابط:

- خذوا نفسا عميقا جدا.

ثم صرخ عاليا:

- سددوا بنادقكم الى نار السجائر، أطلقوا النار.

انطلقت البنادق العشرة، دوت كالرعد في سكون الليل، كان هو الوحيد الحي من بين رفاقه، لم تصبه رصاصة، لأنه رمى سيجارته قبل انطلاق البنادق، كانت السماء صافية، بزرقة صيفية معتمة، احدثت فيها الرصاصات عشرة ثقوب بلون الدم، وعشرة نجوم بلون

الدخان، ثم عاد الهدوء يلف ظلام الجبهة الخلفية الغارقة بليل القسوة والخوف.

حلم جندي

الفصل الأول

العودة من الجبهة

عاد الأبن من الجبهة بإجازة، لحضور مأتم والده.

واظب الشيخ رحمة الله طوال الليالي الثلاث، على الحضور العزاء؛ المقام على مساحة خالية؛ أمام البيت، وبعد صلاة المغرب، كان يتصدر المجلس، يمسد بكفه اليمنى لحيته؛ التي وخطها الشيب، فيلتمع حجر الفيروز الكريم في أصبعه تحت ضوء المصابيح. وما أن يقرأ عن ظهر قلب، بعض ما تيسر من كتاب الأحزان؛ حتى يرتفع بكاء ونحيب الرجال، ويُسمع من داخل البيت؛ عياط وتفجع النسوة على الميت.

في الليلة الأخيرة؛ مُدّ سماط طعام العشاء، أكل المعزون، وقرأوا الفاتحة على روح المرحوم، وقبل أن يغادر الشيخ رحمة الله؛ الرجل الخمسيني، الأسمر البشرة والمربوع القامة، قام وسوى عباءته البنية الداكنة اللون، وعدل عمامته البيضاء، واسى الأبن الأكبر ثم الأصغر، مترحما بعبارات تقليدية؛ عن مشيئة الخالق وقدر المخلوق؛ اللتان لا مهرب منهما، صافح جميع الحاضرين، وقبل خروجه انحنى وطوى طرف الزولية الكبيرة، تعبيرا عن خاتمة الأحزان، خرج المعزون ولم يبق سوى أفراد الأسرة.

بعودة الجندي الأبن الأصغر، التأم شمل الأسرة، تحدث الأبن الأكبر عن حسرة الأب الراحل، لرؤية أبنه الأصغر؛ قبل أن يغمض عينيه الى الأبد، لكن اشتعال الجبهة حال دون تلبية رغبته الأخيرة، انتقل الحديث الى الأبن الجندي، فتحدث عن الحرب، والموت المتربص وراء السواتر، وأشباح ليلها المرعب، وتنور نهارها

المسجور ناراً، أخبرهم الأبن العائد من الجبهة، أن الشيخ رحمة الله سأله عن أبنه الجندي المكلف محمد، فأجاب أنه بخير. قال:

- لم أستطع أن أخبره بالحقيقة.

سأله أخوه الأكبر:

- وما هي؟

- تعرضنا لهجوم قوي، اصبت أنا بشظايا مزقت بدلتي العسكرية عند الفخذين، كانت جروح سطحية أخليت مع الجنود المصابين الى خلف الجبهة، عندما صُدّ هجوم العدو، بدأت عملية الإخلاء، لم نعثر عليه، ربما أُسِر، الله أعلم!

ثم تحول الحديث عن الشجاعة والبطولة، حدثهم الأخ الأكبر عن جلد أبيه وصبره على احتمال آلام المرض القاتل، الذي يخشى الأصحاء من ذكره أو النطق بإسمه، فيقولون عنه المرض الخبيث.

حاول الأبن الأصغر أن يحافظ على تماسكه، بكتم نشيجه، فحدثهم عن الشجاعة في مواجهة الموت في الجبهة، قال:

- الجبن في الأوقات الحاسمة، يتوارى خجلا في خوذة الجندي.

أرادت الأم أن تشاركهم الحديث، تحدثت عن شخصية زوجها القوية، فقالت:

- لم أره يوما يخشى لغير خالقه.

قبل أن تنفض الجلسة العائلية، استأذنت زوجة الأخ الأكبر، وقام معها ابنيها الصبيان، ولحقتها ابنتها الشابة.

تحدثت الأم عن زوجها الراحل..

- يرحمه الله ...كما عرفته في الظروف الصعبة، وخاصة في مرضه الأخير، كان يبتسم بوجوه عواده، فأقول في نفسي، ربما ابتسامته هذه تعبرعن شفقة عليهم، أو دعاء لهم، ألا يبتلي الله أحداً منهم بهذا المرض... كان يقول: الحياة والموت اشبه

بقدمين، واحدة تقفو خطى الأخرى بإتساق، فجأة تعثر قدم الموت، ولا تواصل السير... قال الجندي العائد:

- أبي كان يرحمه الله حكيما وشجاعا، والشجاعة لا تنحصر بالحرب والقتال، لها أوجه كثيرة.

قالت الأم

- طالما ذكرت الشجاعة دعني أقص عليك هذه القصة... أعفيني يا أمي فأنا متعب، وليس لي مزاج اللية.

- سنؤجلها لليلة القادمة، أعدك سأتوقف حالا أن وجدتها مملة..

عندما أخلد الجميع للنوم، ظل الأبن الجندي صاحيا، يستعيد شريط رحلته من المعسكر الى الخطوط الخلفية، وصعوده لسيارة الزيل العسكرية التي أقلته مع بعض الجنود المجازين، ثم متابعة السفر بحافلة ركاب، وجد مكانا خاليا بجانب جندي في مثل عمره، وبعد التعارف بينهما تبين أنه عائد مثله بإجازة، وكان يشبهه الى درجة كبيرة، قال في نفسه سبحان الله، يخلق من الشبه أربعين، تذكر حكاية عمته المرحومة، ان في الشبه حكمة الهية، في هذه اللحظة أخرج رفيق السفر ورقة من جيب قميصه العسكري، وظل ينظر اليها، قال:

- ماذا سأفعل سيعملون لي مشكلة، العرق الناضح من القميص بللها، وكأنها منقوعة بالماء.. ماذا سأفعل؟

أخذها الأبن العائد، نظر اليها، رأى أنها مبتلة تماما والحروف مطموسة تكاد لا تُقرأ، قال

- لا تخف.. سنتبادل الورقتين، أنا أستطيع أن أمر من السيطرة العسكرية دون مشاكل، عندي بالإضافة للإجازة، تقرير طبي، لا تخاف. سنجتاز السيطرة دون مشاكل.

كانت الحافلة مكتظة بالركاب، معظمهم من القرى والأرياف المحيطة بالمدينة،

وكان دخان السجائر، ينعقد كضباب فوق الرؤوس، أما في الخارج فكانت الشمس لاهبة، والظهيرة شديدة الحرارة..

عندما اقتربا من السيطرة العسكرية، وبانت لافتة قف للتفتيش واضحة للعيان، كان رفيق السفر يهمس بإذن الجندي العائد من الجبهة، بكلمات مبهمة غير مترابطة، وأخيرا قال هامسا وبوضوح: ما لنا وهذه الحرب.. لا ناقة لي فيها... فارتفعت أصوات المسافرين بصوت واحد عال كالصراخ.. ولا جمل، راح الجالسون على جهة اليمين يهتفون بالشطر الأول من الجملة، والذين على اليسار يردون عليهم بأعلى أصواتهما، الشطر الثاني من الجملة، توقفوا عن الصراخ وراحوا يصيحون بأسماء، كأن ينادي أحدهم على الآخر.. جاسم.. علي.. أحمد.. ظن الجندي العائد، أنه المنادى عليه، لكن النداءات على الأسماء استمرت بوتيرة حزينة، فهم أنهم ينادون على أبناءهم، إخوتهم وأقربائهم ضحايا الحرب.. عند هذه اللحظة تحولت الحافلة الى بالون كبير، امتلأ جوفه بالهواء الساخن المنبعث من اللهاث والصراخ المحموم، شهق عاليا في السماء، خيل اليه أنه سمع صوت إطلاقات نارية تأتي من الأرض، لكنها لم تصب البالون..

فكر وهو يتقلب في فراشه، أن يتحايل على أرقه بطريقة ما، من تلك الطرق التي قرأها للتغلب على الأرق، كأن يتخيل نفسه على قارب طاف على سطح بحيرة ساكنة، ليل هادئ، قمر بازغ، ينير حلكة السماء، حركة موج بطيئة ترتطم بالقارب، فتأخذانه لنوم عميق.. لم تنجح الطريقة.. لم تنفع هدهدة القارب كمهد الطفل، أن تجلب لعينية النوم، كانت أمه في طفولته، تحكي له حكاية قبل النوم، من تلك الحكايات الماتعة، كان منبهرا بها ومندهشا، وعندما كبر تساءل مع نفسه من أين تأتي بها، فهي لم تذهب لمدرسة، ولا تعرف القراءة، امرأة ولدت ونشأت في الريف، وانتقلت للمدينة عندما تزوجت، بعد ذلك راح يقرأ سورة الكرسي، التي اعتاد على قراءتها عندما يجافيه النوم، وعندما يصل الى " لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم "* يرتخي جفناه، أحيانا ينام قبل أن يكمل السورة.. قرأ السورة مرتين وأرخى جسده في الفراش وأفرغ ما في رأسه من أفكار، بالتركيز دون حركة على شيء ما في الغرفة..

الفصل الثاني

الحلم

يأخذنا النوم الى أحلام.. فإن كانت وردية فتلك هي الجنة، أما الكوابيس فذلك هو الجحيم، لا تخاف ما بعد الموت، فلن يكون أسوأ من رعب الحياة. نام نوما عميقا، رأى نفسه شابا فقيرا، يعيش مع إمه في كوخ بأطراف المدينة، ويعمل حارسا في قصر السلطان، وفي تلك الليلة التي سرقت فيها خزينة القصر، كان يعتني بأمه المريضة..

في الصباح اكتشف السلطان ما حدث، فحبس جميع الحراس وكان ينوي قطع أعناقهم، فنصحه حكيم القصر أن يتريث ولا يحكم عليهم بالموت..

قال العراف: سيدي لدي فكرة ترجع لكم جميع المسروقات وتحقن دماء هؤلاء المساكين، أن تأمر طباخو القصر بإعداد قدر كبير من الحلوى، سوف أصف لهم تركيبها وكيف يصنعونها، ثم نهيئ للقدر الكبير مكانا وسط قاعة خالية ومظلمة، ونختار أشجع الحراس كيما يتولى حراسة قدر الحلوى، وفي الليلة المقررة ستأتي جنية لا تستطيع مقاومة الحلوى حينما تشم رائحتها.. وسوف يساومها الشاب لقاء الحلوى بكشف مكان الكنز.

أختار السلطان لهذه المهمة الصعبة حارس القصر الشاب؛ لبسالته وجرأته ورباطة جأشه وقوة عزيمته وإخلاصه وتضحيته، وفي تلك الليلة الظلماء وقف كالمارد وسط ظلام القاعة الخالية، وبيده مغرفة معدنية كبيرة، جاءت الجنية تريد الحلوى، فمنعها وطلب منها أولا أن تكشف سر الكنز فتأخذ ما تشاء لها ولغيرها، وفي هذه الأثناء تزاحم صغارها على القدر، فطردهم بمغرفته، غضبت الجنية الأم وهجمت عليه، فضربها برجلها فصاحت متألمة، وسقطت فردة حذائها الذهبي، وهربت مع صغارها..

في الصباحَ مثُل أمام السلطان، وقص عليه ما حدث ليلة أمس، وأراه فردة

الحذاء الذهبي، فانبهر الملك بجماله الساحر، وأمره أن يأتي له بالفردة الأخرى، أعطاه نقودا وزوده بالمتاع ، ودع الحارس الشاب أمه العجوز، وسار في الدرب على غير هدى، ولكن حدسا داخليا كان يحثه على الاتجاه صوب النهر، وعندما وصل اليه كان الليل قد حل، والظلام من حوله دامسا، سوى بصيص ضوء ينبعث من كوخ على الشاطئ الآخر، وزاد الأمر سوءاً أن السماء كانت مكفهرة، والمطر ينهمر غزيرا والبرق يخطف البصر، نادى فضاع صوته وسط قرقعة الرعد، لم ييأس نادى في فترات السكون، فرأى شبح أنسان خارجا من الكوخ ، لوح بيديه ولكن الشبح تجاهله، وعاد لكوخه، ناده مرة تلو الأخرى دون جدوى، وأغراه بالنقود فلم يستجب، في المرة الأخيرة هدده صارخا؛ إذا لم تأت فسأرجع للقصر وأخبر السلطان بعصيان أوامره، بعد هدوء قليل رأى البلام قاطعا عرض النهر متجها اليه تحت وابل من المطر، كان الرجل شيخا كبيرا أعتذر الشاب وقال: ياعم والله ما كنت أضطرك للعبور في هذا الطقس السيء، لولا المهمة المكلف بها من قبل السلطان، لم يقل الرجل شيئا، كان يهتز مبتلا كالسعفة من البرد، حذره قائلا: أنه في مثل هذا الوقت يتعذر العبور، ويصير محفوفا بالمخاطر وغير مأمون العواقب، فثمة جنية في النهر تمنع عبور النهر للجانب الآخر، إلا لمن يسكب في الماء كيسا من الذهب، قال الحارس الشاب: لا تخف ياعم سنتدبر الأمر أن شاء الله ، قفز للقارب والقى شيئا من ثيابه على كتف الرجل، ودارت الدفة باتجاه الضفة الثانية، وكما توقع البلام اعترضت الجنية القارب في وسط النهر ومنعته من العبور، مد الحارس الشاب يده في الماء تحت القارب وأنتزع بقوة كفا؛ فتحرك القارب حتى وصل للشاطئ، تعجب العجوز بما فعله الشاب ودعاه للمبيت في كوخة، فقبل دعوته، وفي الصباح جلس مع البلام وامرأته وابنته وتناولوا طعام الإفطار، ودعهم عند مدخل الكوخ ودس بيد الشيخ كيسا من النقود، وشكره على حسن ضيفاته، وسار في طريقه، أرض تشيله وأرض تحطه، حتى وصل الى مدينة غارقة بالسواد والحزن، كل شيء فيها يخيم عليه الكآبة، أستغرب من حالتها، وسأل أحدهم فقص عليه: أن ملك هذه المملكة له ابن وحيد؛ هو ولي عهده، شاب وسيم، عشقته جنيه، فخطفته من

القصر، وأسكنته بيتا خارج المدينة ، سحرته فجعلته ينام طوال النهار، وعندما تأتي اليه ليلا توقظه بعصاها السحرية، تنادمه الشراب وتراقصه، ثم تنام معه فيقضي معها وطره.. وتتركه عند بزوغ الفجر مسحورا نائما، وهكذا تفعل كل ليلة.

أختار الملك ثلة من جنوده الشجعان لإنقاذ ابنه، لكن الجنية فتكت بهم؛ فوجدوهم صرعى مقطعي الأوصال بأبشع صورة، فلم يجرأ أحد على الاقتراب من المكان الذي أخفت فيه الأمير..

عندما سمع الحارس الشاب القصة ذهب للملك فورا وعرض عليه المساعدة ، قال الملك إن كنت يا بني واثقا من نفسك فأذهب وليبارك الرب، أستعد للمعركة وتسلح بالذكاء والحيلة وحمل معه حجرا، واختفى في مكان قريب، وعندما حل الظلام جاءت الجنية كسحابة ترعد وتبرق، وحطت على سطح البيت الذي فيه الأمير، لم يتحرك من مكانه ظل محافظا على هدوئه ريثما ينجلي له الموقف، رآها من فتحة في الشباك، تدخل على الأمير بأحلى وأبهى زينة، وكانت في غاية الحسن والجمال ، لم تر عينه امرأة مثلها في الأناقة والأغراء، لمسته بعصاها فاستيقظ ، تطارحا أفانين الغرام، وقرعا كؤوس الشراب، وبدا الأمير مفتونا متيما بها، وقبيل شقشقة الفجر وانبلاج ضوء النهار، وضعت العصا على رأسه فنام وخرجت، وجد الحارس الشاب الفرصة سانحة، فالجنية كانت في حالة انتشاء وخدر وقواها خائرة، وقبل أن تطير رماها بالحجر بكل ما أوتي من قوة، فصرخت متألمة وسقطت العصا السحرية من يدها وهربت.. أيقظ الأمير بالعصا، تركه وأسرع جريا للمدينة ليبشر الملك بنجاة ابنه، فهرع الملك وجنوده بعرباتهم للمكان، وحملوا الأمير وهو في حالة يرثى لها، أزالت المدينة مظاهر الحزن ورفعت الأعلام وعلقت الزينة على الجدران واحتفلت الرعية بالرقص والغناء في الشوارع والميادين سبعة أيام بلياليها، عمت فيها الأفراح أرجاء المملكة، وعندما استأذن الحارس الشاب الملك بالسفر، حاول ان يثنيه عن قراره؛ وعرض عليه أن يوليه منصبا رفيعا في المملكة. ويزوجه ابنته، ولكنه أعتذر بأدب وأخبره أنه مكلف بأداء مهمة لسلطان بلاده، ويتحتم عليه إنجازها والعودة إلى أمه العجوز المريضة ، قبل الملك عذره وأجزل له العطاء؛ ودعه ومضى في طريقه أرض تشيله وأرض

تحطه، حتى وصل الى قصر عجيب لم تر عينه بمثل فخامته وجماله، دخل عبر البوابة المفتوحة، الى الحدائق التي تحيط به، نظر من أحدى النوافذ فرأى غرفة نوم؛ فيها ثلاث أسرة انيقة ومرتبة بعناية، دلف اليها وكان متعبا وجائعا، لكنه كان يتوق للنوم فلم تغره رائحة الطعام المنبعثة من الغرفة المجاورة، تمدد على أحد الأسرة، وقبل أن تأخذه إغفاءة لذيذة سمع ضجة تقترب، أنسل من فراشه واختبئ تحت السرير، سمع أصواتا تأتي من الغرفة المجاورة تختلط بطقطقة الملاعق والسكاكين، فأدرك ان أصحاب القصر يتناولون طعامهم، وبعد قليل دخلت ثلاث جنيات غرفة النوم وتمددن على الأسرة لكن واحدة منهن صرخت أشم رائحة إنسي في سريري، أتمنى ان يكون هو لأقطعنه إربا إربا .. وقالت الأخرى لو كان هو أفعل به كذا وكذا، وقالت الثالثة شيئا أفظع من ذلك، كانت كل منهن تتوعد متألمة مما فعله بها، تجرأ وخرج إليهن غير هياب لتهديداتهن، صاح بصوت عال ها أنا ذا أمامكن فأفعلن ما تردن.. جمدت الجنيات من وجوده المفاجئ ، واقفا أمامهن بقامته المديدة القوية، توسلن اليه أن يعيد إليهن ما سلبه منهن وسوف يلبين كل ما يطلب، قال حسنا بشرط أن تعدني كل واحدة منكن أن تكف عن عمل الشر؛ وتتجه لعمل الخير ومساعدة الناس، فالتي تمتلك الحذاء السحري الذهبي من الممكن ان تستخدمه لكشف سرقات اللصوص؛ وكنوز الملوك وما يسرقه وزرائهم الفاسدين، والتي عندها الكف السحري تنقذ الغرقى؛ وتسهل عمل النوتية عند عبورهم الأنهار المضطربة؛ أوقات العواصف الشديدة، أما التي بيدها العصا السحرية فخير لها أن تخفف بها من آلام المرضى المصابين بالصرع والغيبوبة؛ فتعيدهم الى وعيهم وحالتهم الطبيعية، أخذ منهن عهدا بذلك وميثاقا غليظا، فسلمهن أدواتهن، طلب من صاحبة الحذاء أن تأتي معه لتدله على الخزينة المسروقة، وليرى السلطان كذلك فردة حذاءها الثانية، وافقت وذهبت معه، فاستعاد السلطان خزينته، لكنه وقع بحب الجنية فقالت له عذرا أيها السلطان العظيم، نحن معشر الجن لا نرتبط بزواج دائم مع من نحب من الأنس، فقبل عذرها فعادت لتلتحق بأختيها ..

شكر السلطان الحارس البطل، وعرض عليه منصبا رفيعا في السلطنة؛ لكنه أعتذر

بأدب.

بعد أن علم بوفاة والدته أثناء غيابه، استأذن السلطان، وشرع بالقيام بمغامرات جديدة و التقى بأناس لم يلتق بهم من قبل، أحبوه وأحبهم ..

الفصل الثالث

زيارة الشيخ المندائي

في الصباح، اجتمعوا على مائدة الإفطار، كانوا فرحين بالأخبار التي شاهدوها جميعا من التلفاز، قالت الأم لإبنها العائد من الجبهة، الآن حان الوقت لأحكي لكم قصة فتى شجاع من زمن قديم، بمناسبة سماعنا ليلة البارحة بوقف إطلاق النار، وانتهاء الحرب.. سألها الأبن:

- ما اسمه؟

- إلعيوس..

ضحك واستغرق ضاحكا، ضاجا بضحكته الصاخبة، حتى كاد يشرق بالشاي الذي أرتشف منه رشفة صغيرة، شارك أبناء أخيه عمهم في الضحك، لكن أباهم أومأ لهم فسكتوا. قال الأبن العائد:

- أقلت إسمه يوليسس؟

قالت الأم:

- لا.. من يكون هذا الذي ذكرته؟

- لا عليك.. هذا كان مغامرا إغريقيا، قرأت عنه في منهجنا الدراسي للغة والأدب الإنجليزي في الجامعة.

قالت الأم:

- ستعجبك شجاعته ومغامراته.

- لا تتعبي نفسك لقد حلمت به، كنت أنا هو في الحلم؛ وعشت مغامراته العجيبة والمدهشة، حقا لقد أعجبت بشجاعته.

في الليلة التالية رآهم في الحلم، الأم العجوز المريضة، الحكيم الذي أنقذ حراس القصر، البلام الطيب وزوجته وابنته، وضع حلم تلك الليلة في كفه جمرة ملتهبة، كيف سيعيد هؤلاء الأخيار الى الحياة، هم ليسوا أناسا من عصرنا، كان الاتصال بينهم مباشر، رآهم يجتمعون في سرادق تأبين والده المتوفي يتسامرون. يرتشفون القهوة السوداء المرة، ما هو الشيء المشترك بيننا، حين أجلس معهم، عن أي شيء أحدثهم، ظل هذا الهاجس يلح عليه؛ أحيانا يتجاهله بذرائع مختلفة فيقول؛ عندما يحدث شيء بمكان ما؛ ويكون الفاعل معلوما؛ والوقت معلوما أيضاً تستطيع أن تقول إنك صادق فيما رويت ما حدث، ولكن ماذا لو كنت تحلم!

تذكر رفيق السفر الذي أحبه وانعقدت بينهما صداقة جديدة، فقال يخاطب نفسه، أنت محظوظ حقاً؛ حين يهبك الله صديقا تحبه، أنتما في سن متقاربة، والمسافة التي قربتكما لبعض، بإتساع الخوف الذي عشتماه وراء السواتر، لم تلتقيا يوما وأن كان صدفة في مكان ما، لذا فالعلاقة بينكما لا يشوبها شيء من معارك الماضي؛ او صراع الإرادات التي فشا أمرها في حقبة معينة من الزمن.

ليست الصدفة وحدها تأتي بالحظ الجيد؛ ولكن اليقظة لاقتناص الفرص المواتية، وقبل أن تنهي من قراءة كتاب بين يديك، وتعيده لمكانه على رف المكتبة، تشعر أن الكاتب يحاول أن يلفت انتباهك؛ لشيء ما ربما تحذير، أين؟ ربما في الصفحة الأخيرة..

تحب أن تحمد الله الذي حباك بالحظوة في القلوب.. فجعل في نفسك محبة لصفوته بأرضه وسماءه..

الحرب انتهت، ألقت أوزارها الثقيلة؛ فهي إذاً متعبة ومنهكة؛ استنفذت كل

قواها، أيعني أنها تحتاج لقسط من الراحة، قد يكون طويلا أو قصيرا؛ حتى تستعيد قواها الخائرة، إذا فالسلام ما هو إلا فترة استراحة.

كان الطريق الذي يقطعه، خاصة إذا كانت نهايته الالتحاق بوحدته العسكرية، بعد إنتهاء إجازته، يشعره بعبثية الحرب وقساوة الأقدار، ولكن عندما كان طالبا جامعيا، كانت الغاية من السفر التحصيل العلمي، إكمال الدراسة، نيل الشهادة الجامعية، الإلتقاء بزملائه في قسم اللغة والأدب الإنجليزي، شتان بين الإثنين.

آخر شيء كان يحلم به بعد إنتهاء الحرب، عودة الغزلان الى موطنها، ولكنه فكر، كيف ستعود وهناك أطنان من حطام أسلحة الحرب تغطي الأرض! كان يتمنى أن يرى الغزلان تأتي مطمئنة لتطفئ غليلها من مياه بحيرة غزيله، كانت هذه الأرض مفروشة في الربيع بالنباتات والأزهار البرية حتى الأفق البعيد، يتذكرها جيدا عندما كان يذهب في رحلات مدرسية لتلك الأماكن الخلابة، كان آخر شيء تاقت اليه نفسه الطواف بالأرجاء، لم يبق من إجازته سوى يوم واحد، فقرر أن يذهب ماشيا لزيارته الشيخ المندائي في بيته القريب، ليطرح عليه السؤال الذي لم يجد له جوابا، وهو: هل كان باستطاعتنا منع هذه الحرب، وهل أنها كانت حتمية فعلا، أو كما يقول العوام: مقدر ومكتوب؟

ظل يفكر بحقيقة هذه المعتقدات الموروثة، حتى وصل فقرع الباب، خرج الشيخ بنفسه رحب به واستقبله بحفاوة، وتلك عادته حين يستقبل أحداً من الجوار.

جئت لأسألك عن صحة نبوءة الحرب، فهل هي حقيقية، أم أن من قاموا بنشرها أرادوا إشعال فتيلها. أنكر الشيخ المندائي صحة النبوءة، قال إنها تعويذة بصيغة شعرية، لطرد الأرواح الشريرة، عندما جفت مياه بحيرة غزيله، تحولت البراري التي كانت مروج خضراء الى أرض يباب، تعج بالغبار والأفاعي السامة؛ فهلك الغزال والضباء والطير البري، وهاجر من بقى حيا الى الجبال المجاورة؛ وهي مكتوبة بقطرات من رصاص مذاب بالنار، على ورق مصنوع من لب البردي، مقطوع في موسمه، ومحفوظة في سفط ملفوف بقماش كتان أبيض، تبدأ بدعاء الى الخالق العظيم ملك النور بالتوسل والاسترحام: نتوسل اليك أيها الخالق العظيم

العارف الحي؛ ملك النور، أفض علينا بالماء، لتمتلئ البحيرة بالمياه، حتى يصل الماء الى ركاب الخيال، فتحيا الأرض ويموت الجدب..

سأل الجندي العائد من الجبهة.

- إذا كيف تغيرت هذه الصيغة؟

- لم تتغير، والله أعلم من حرّف المعنى فبدل الماء بالدم، والجدب بالحرب.

- فكيف تغير المعنى؟

- بحذف كلمة الأرض في صيغتها الأصلية؛ فأصبحت هكذا: يصل الدم لركاب الخيال.. وتحيا الحرب.

- إذاً كان قصده: بالدم تحيا وتعيش وتستمر الحرب.

- نعم هكذا كان يريد دعاة الحرب ان يبثوا سمومهم، بالدم تتغذى الحرب، فهم متعطشون لسفك الدماء، ولكن يا سيدي الشيخ شئنا ام أبينا فالحرب ستبقى والذكر الحكيم يقول: "كتب عليكم القتال وهو كره لكم". *

- القتال غير الحرب.

- كيف؟

- القتال قد يكون دفاع عن النفس، أو لرد عدوان، والأخوة أحيانا يتعاركون، أما الحرب فهي فظيعة..

- وهل ستنتهي يوما؟

- الله أعلم متى؛ ولكن ستنتهي.

- كيف؟

- عندما يتصالح الإنسان المنزعج أو المستاء والغاضب.

- مع من يتصالح؟

مع نفسه أولاً.

أكتفى الجندي بهذا القدر من النقاش، تذكر كره أمه وإدانتها للحرب لخوفها عليه، كلما جاء في إجازة، صرخت ملتاعة وكفيها مرفوعتان للسماء:

" ليش يا ربي هذي الحرب"!

كتم ضحكة كادت تنفجر، عندما تذكر جارتهم أم كريم، كانت عندما يتعارك معها زوجها العصبي المزاج دائما، ويكسر شيء من أثاث البيت المتواضع، كانت تتعامل مع المشكلة كأم تهدئ ابنها النزق، بشيء من الحلوى أو بضمه بحنان الى صدرها، فقال في نفسه أيمكن تطبيق هذه الطريقة الناجحة، والعملية بين الدول لتفادي وقوع الحروب...!

ودع الشيخ وشكره، كان النهر اول شيء وقعت عليه عينيه، يلتمع سطحه وقت الظهيرة، كمرآة صقيله، فراح يتغزل بالمياه الجارية أو اليرادن* كما يسميها الشيخ المندائي، كان هذا النهر كالفرس البرية، جامحا لم يركب ظهره قارب، قبل ظهور الإنسان على وجه البسيطة، كانت الأغصان المتدلية عليه تداعبه، وجذوع الأشجار تطفو عليه، يتجاذب كلمات العشق مع أغصان الصفصاف المتدلية، قبل ان يعشق نرسيس صورته المنعكسة على صفحته البلورية، فيأخذه الماء الى إعماقه كما تأخذ الأم الحنون طفلها لأحضنها.

يوم ابيض من أيام الله، خارج حساب الزمن، هو ما تطمح اليه البشرية، يعم فيه السلام ارجاء المعمورة، كذلك طمحت روح الجندي العائد من الجبهة لتلك الأماكن الحميمة، كانت صورها يوما ما في طفولته، تتشكل بإتساق وتماسك في الذاكرة الفتية لصبي، تعبق برائحة المكان المتمرد على جبروت الزمن والنسيان، يتناهى منها صوت واهن ينبثق من الحلم والخيال الجامح، أعطت هذه الصور لحياته إطاراً سحرياً، لا يزال يعيش تحت تأثيره المدهش حتى الآن...

اقترب من بيته فرأى أمه تنتظره عند عتبة الباب.

- قلقت عليك أين كنت؟

- كنت عند الشيخ المندائي سألته أشياء عن الحرب.

- انتهت.. فلماذا تسأله؟

كان يريد ان يقول لها: انتهت... وفي نهايتها ستكشف عورة الفقير، التي كانت من قبل مستورة، لكنه لم يقل شيء، دلف معها صامتا لداخل البيت، وعندما أغلقت الباب؛ نسي أنه جندي عائد من الجبهة، انتهت إجازته اليوم.

انتهت

الهامش:

• الآية 255 من سورة البقرة.

• اليرادن: هي المياه الجارية، باللغة الآرامية المندائية.

• الآية 216 سورة البقرة.

المحتويات

يوم أخضر	5
رجل الله	11
المرأة الحمامة	16
السيدة سين وقطتها يستردای	19
الحلية الذهبية	28
الحمقى	33
المحاكمة	35
ليل وصهيل	38
شمس وشظايا	46
حلم جندي	51



صالح البياتي

في «يوم أخضر»، يقترب صالح البياتي من تفاصيل الحياة العراقية، حيث تتقاطع الذاكرة والحرب والفقد مع الحنين والأمل.

بين امرأة عجوز ترعى نخلة كأنها ابنتها، وشخصيات تبحث عن الألفة وسط الوحدة، تنفتح الحكايات على عوالم يلتقي فيها الواقع بالخيال.

قصص تحتفي بما تمنحه المحبة من قدرة على مقاومة الغياب، وبالحياة التي تنبت رغم الخراب.